مقال في العدل الاجتماعي

د. عماد الدين خليل







(٢٦)
مقال في العدل الاجتماعي

١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م

مقال في العدل الاجتماعي



تأليف

د. عماد الدين خليل


بسم الله الرحمن الرحيم



تقديم

١

يبدو أن حركة التاريخ تنزع إلى أن ترمي بثقلها، أكثر فأكثر، صوب مسألة (توزيع الثروة)، فازدياد وعي الإنسان بمرور الزمن، وتطور الثقافات، واتساع حجم العلاقات الاجتماعية وتضخمها، وظهور العصر التكنولوجي ونموه الهائل وارتباطه بحدوث تمزق طبقي لم يشهد التاريخ له مثيلاً، وغيرها من التغيرات الشاملة في ميادين الحياة البشرية، والتي أخذت تحتل أماكنها في خارطة العالم طيلة القرنين الأخيرين بالذات كما هو معروف، نبهت المفكرين المتخصصين والناس العاديين إلى مدى خطورة (المسألة الاجتماعية)، ودعتهم إلى مناقشتها (أكاديمياً) ومحاورتها (عملياً) من أجل الوصول إلى أفضل صيغة يمكن معها أن يتحقق العدل الشامل في نطاق أمة بعينها، أو في مدى العالم كله.

ومن البداهات المعروفة لكثير من المثقفين المعاصرين، وقناعاتهم، أن المشاريع (الاشتراكية) التي طرحها، ونفذ بعضها، حشد من الاشتراكيين الطوباويين في فرنسة وإنكلترة وغيرهما من بلدان أوروبة في القرن الماضي،

كانت المحاولات الجادة الأولى لحل المشكلة الاجتماعية، إلا أنه سرعان ما طغت عليها النزعات الخيالية، بدلاً من التصميم الواقعي، والحلول الوسطية بدلاً من التغيير الجذري، وروح الشفقة والعطف بدلاً من اعتماد (العنف) لرد الحقِّ إلى نصابه وإنصاف المظلومين من الظالمين.

ولم تستو هذه المعالجات الاشتراكية على سوقها وتتبلور وتأخذ نسقها العلمي كما يرى كثير من الدارسين الا على يد ماركس ورفيقه أنجلز اللذين طرحا في مؤلفاتهما، وبخاصة المنشور الشيوعي الأول وكتاب (رأس المال)، التصميم النهائي للمسألة الاجتماعية، قائلين: إن نتائج دراساتهما ليست خيالاً وعاطفة، وإنما جهد عقلي خالص، فسموها (الاشتراكية العلمية) تمييزاً لها عن سائر الاشتراكيات، كما أنها ليست ارتجالاً توفيقياً، وإنما كشفاً علمياً عن حقائق الحركة التاريخية وحتمياتها الجدلية (الديالكتيكية)، تلك التي تقضي بتبدل دوري في وسائل الإنتاج، يخلق ظروفاً إنتاجية معينة، تكون بمثابة قاعدة تحتية شاملة تتأثر بها وتنفعل سائر الفاعليات الحضارية (الفوقية)، فتتشكل بموجب ما تأمر به القاعدة...

وإنه قد آن الأوان، وحتمت تناقضات الحركة التاريخية، زوال الظروف الإنتاجية للرأسمالية وسائر مؤسساتها الحضارية، وقيام حكم (الطبقة العاملة)؛ حيث تلغى حقوق الملكية أساساً، وتقوم الدولة، أو الطبقة الحاكمة، نيابة عن المجتمع، بإدارة واستثمار وتوزيع الأموال العامة بأكبر قدر ممكن من التساوي بين الجميع وفق الشعار المعروف (لكل حسب حاجته).

٢

هذا بإيجاز تام هو مسار الحلول الغربية الحديثة للمسألة الاجتماعية على المستوى النظري، وإنَّ كثيراً من المثقفين في عالمنا الإسلامي يوقنون فعلاً بأن الاشتراكية العلمية هي الحل النهائي، والصيغة المثلى للعلاقات

الاجتماعية، وأنها ليست مجرد معطيات شخصية نسبية كما هو الحال بالنسبة للاشتراكيات الطوباوية، وإنما هي علم مجرد وحقيقة تاريخية وحتمية لا مناص من الاعتراف بمقولاتها التي لم يخلقها ماركس خلقاً من العدم، وإنما كشف عنها النقاب وقد كانت مطمورة.

وهم في غمرة انبهارهم بهذا التصميم العلمي للنظرية، ينسون مجموعة هائلة من الحقائق والتناقضات تتعلق بصميم النظرية نفسها، وبمناهج البحث التي قادت إليها، كما تتعلق بما تمخض عن تطبيقاتها من نتائج ومعطيات (ليس هذا مجال تحليلها بطبيعة الحال)، ويتشبثون تشبثاً (دينياً) يجعلهم يرون فيها اليقين المطلق، والحق الذي ما وراءه إلا الباطل، الأمر الذي ينحرف بهم بدرجة أو أخرى عن التزام المنهج العلمي الصحيح في الحكم على سائر المذاهب والأفكار التي طرحت برامجها الاجتماعية لحل المشكلة، وعلى رأسها الإسلام، ويحكمون بظنيتها ورجعيتها!!.

ويبدو أن هذا الاعتماد الخاطئ يكتسح اليوم قطاعات واسعة من المثقفين، حتى ممن لا يؤمنون بالماركسية إيماناً مطلقاً، بل يكتسح أحزاباً تقوم إيديولوجيتها على أساس (قومي)، بينما لا ترى الماركسية في القومية سوى تعبير رجعي عن مرحلة بورجوازية عفى أو سيعفي عليها الزمان!!

ولا ريب أن عدوى «التقليد» تفعل فعلها في هذا المجال على كل المستويات.. فأشد الوجوديين (فردية) يتغزلون بين الحين والآخر بهذا الإلٰه العلمي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأشد مأجوري الإمبريالية إخلاصاً لسادتهم، يهرعون للانتماء إلى أقرب حزب شيوعي ويتباهون بارتدائهم الأردية الحمراء! وأكثر الشباب تأنقاً وتظرفاً لا يخلو حوارهم من مصطلحات ماركسية، وأشد بعض رجالات الدين والقسس صليبية، يقدمون صلواتهم ويباركون معطيات النبي الألماني الجديد.. وحتى

أولئك الذين ينتمون لمجموعات الهيبيز المتفسخة الهائمة، لن تعدم أن تجد فيهم ماركسيين من أول طراز!!.

ولا ريب أيضاً أن حرب المصطلحات النفسية، المعلنة والصامتة، التي يعتمدها بدهاء عجيب دعاة الماركسية في تقسيم الناس إلى تقدميين، أو أصدقاء للتقدمية، إن آمنوا بدعوتهم أو اقتربوا منها، وإلى رجعيين، أو عملاء للرجعية، إن رفضوا دعوتهم، وبعدوا عنها، أياً كانت أسباب الرفض والبعاد، لا ريب أنها تفعل فعلها.. وعندما يضعف الإيمان في النفوس، وتتفكك العقائد في الأذهان، ويتسرب اليأس إلى القلوب، يجد مثيرو هذه الحرب النفسية الميدان واسعاً رحيباً، فيرمون بشباكهم لاصطياد هذه الأفواج القلقة الحائرة، أو كسبها إلى صفّهم. ومَنْ مِنْ هؤلاء يرفض أن يذهب إلى صف العلم والتقدم؟ ومن منهم يقبل على نفسه سمة الرجعية والتأخر؟ ومن منهم لا يرغب في تغطية فراغه النفسي وخوائه المذهبي، بمجرد انتماء إلى مذهب يضعه في صف العلم والتقدمية، ولا يكلفه إلّا حفظ مصطلحات محددة جاهزة وتردادها.. وإلّا رفضاً غير علمي ولا مسؤول، لكل ما تطرحه المذاهب والمعتقدات الأخرى بما فيها الإسلام الذي أعلن ماركس أنه لا يعرف عنه شيئاً ذا بال؟!!.

٣

هل معنى هذا أن نظل نحن ملتزمين الصمت حتى يحين اليوم الذي يعود فيه هؤلاء إلى جدهم بعد أن تتبين لهم، حيناً بعد حين، التناقضات التي يمارسها هذا الإله العلمي المزعوم في النظرية والتطبيق؟! أم أن علينا أن نهرع لكي نطرح (على أوسع نطاق) برامج الإسلام الاجتماعية، ونحلل أبعادها الحقيقية، ونقطع الطريق، دونما جلبة منبرية، أو ضوضاء بلاغية، على كل القائلين برجعية الإسلام وبموقفه (اللاعلمي) من المسألة

الاجتماعية، ذلك الموقف الذي لا يعدو في نظرهم أن يكون إشفاقاً على الفقراء والمساكين، ودعوة للتبرع لهم والعطف عليهم؟ وهو موقف يدعو إلى النفور أكثر مما يدعو إلى الارتياح والقبول؟! وإلّا فأي إنسان واع يرتضي من عقيدة ما أن تقف من الفقراء والمسحوقين هذا الموقف الأدبي، دون أن تضع البرامج الكفيلة بالقضاء على الظاهرة أو الحد منها، ودون أن تنفخ في المظلومين روح الحركة والثورة لاسترداد حقهم من الظالمين والمغتصبين؟!.

إن الجواب يجيء على أيدي عدد من الكتاب الإسلاميين آثروا أن يكتبوا عن بعض جوانب الموضوع، ناقدين محللين، وهم قلة على أية حال، إذا ما قورنوا بمفكري وكتاب المذاهب الأخرى عن المسألة نفسها.. ومن ثم فإن الطَّريق ما زال مفتوحاً يحتّم علينا أن ننفر جميعاً لمعالجة الموضوع على ضوء الأهمية الكبرى التي أوليت له في العصر الحديث، وأن نعتبر بحثه ومناقشته (فرض عين) علينا جميعاً، حتى ولو قادنا إلى عشرات الأخطاء، فإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى[1].

الموصل: عماد الدين خليل

---

(١) حبذا لو تنشط في فكرنا الإسلامي المعاصر حركة (ببليوغرافية) نقدية إزاء قطاعات هذا الفكر العديدة، من أجل الإحاطة ـ قدر الإمكان ـ بمعطيات كل قطاع في مصادره القديمة ومراجعه الحديثة. فيتولى أحدنا مثلاً تنظيم عرض ببليوغرافي لكل ما كتب عن الجانب الاقتصادي في الإسلام، مذهباً ونظاماً، تصوراً وتشريعاً، في القديم والحديث، وسواء كان هذا الذي كتب أخرج في بحث مستقل أم نشر متداخلاً مع مواضيع مختلفة، وسواء قدم على شكل كتاب أم عمل موسوعي أم مقال في نشرة دورية.. مع عرض موجز للمسائل الأساسية الهامة المتعلقة بأي من هذه الأبحاث: المؤلف، عصره، ثقافته، الخطوط العريضة للبحث، موارده الأساسية، تأثيراته، حجمه، محل النشر وزمنه، مع دراسة نقدية مركزة عن (قيمة) البحث، سلباً وإيجاباً، وعن الموقع الذي يحتله على خارطة الفكر الاقتصادي ـ الاجتماعي في الإسلام. ولا ريب أن محاولة استقصائية نقدية كهذه ستجيء =




= بمثابة دليل علمي لكل من يسعى للبحث في هذا الميدان. فهنالك في معطياتنا الفقهية القديمة تبرز أسماء؛ مثل: ابن رشد، الكاساني، أبي يوسف، أبي عبيد بن سلام، الماوردي، الغزالي، أبي آدم القرشي، ابن حزم، الشاطبي.. وغيرهم، يقابلها عدد كبير من أسماء المعاصرين الذين أدلوا بدلوهم في هذا الميدان، في بحث واحد أو عدد من الأبحاث مثل: السباعي، سيد قطب، محمد الغزالي، محمد العربي، تقي الدين النبهاني، أبي الأعلى المودودي، القرضاوي، العشماوي، عمر عودة الخطيب، محمد البهي، محمد شوقي الفنجري، إبراهيم الطحاوي، فتحي عثمان، عبد العزيز البدوي، أبي السعود، سعيد عبده، مختار متولي.. وغيرهم.

ومن المستحسن، بل من المهم، بطبيعة الحال، أن يتولى كبر هذه المهمة متخصصون في الموضوع نفسه، أو في علم المكتبات الذي نضج إلى حد كبير في العقدين الأخيرين.

وما يقال عن القطاع الاقتصادي ـ الاجتماعي، يمكن أن يقال عن أي قطاع آخر في العطاء الإسلامي الواسع، الخصب، المتشعب، الدائم: الآداب والفنون، نظم الحكم والإدارة، النفس والاجتماع، المنطق والفلسفة.. إلى آخره.. ولن ننسى أن نشير هنا إلى البادرة الطيبة التي قدمها الأخ الأديب (محمد الحسناوي) في مجلة (حضارة الإسلام) عن (المكتبة الأدبية الإسلامية) نرجو أن تعقبها محاولات أخرى، في عصر ساد منطق (التنظيم) فيه، كل صغيرة وكبيرة، وامتد لكي يعمل في كل ميدان.

ملاحظة: صدر هذا الكتاب في سبعينيات القرن الماضي، وقد نفذت في العقود التالية محاولات عديدة في مجال فهرسة المعطيات الإسلامية، أبرزها جهود محيي الدين عطية، ونشرها المعهد العالمي للفكر الإسلامي في سياق إصداراته المعروفة.

القسم الأول

مقارنات


@Ahmedyassin90

١

إن أية مقارنة أولية بين الإسلام والماركسية تقودنا إلى الحقيقة التالية: إنه بينما ينظر الإسلام إلى قضية (العدل) نظرة شمولية، تتجاوز نطاق العالم إلى الكون كله، ويرى أن (الظلم) المنصبَّ على الإنسان لا يقتصر على حجب حاجاته البيولوجية الأساسية فحسب، بل يتجاوزها إلى مظالم أخرى أصعب، وأعتى، وأشد تعقيداً، منها: حجب حريته، وكبت تعبيره الذاتي، ووقف مطامحه، وسحق تفرده، وإخراجه عن موقعه الصحيح في الخارطة الكونية، وأن المبادئ العادلة هي التي تستجيب لحاجات الناس جميعاً وليس لإحداها فحسب.. وبينما ينظر الإسلام إلى (الإنسان) كسيد حر على الأرض، مستخلف فيها لإعمارها بملء إرادته، وإلى الأرض والطبيعة والعالم كأرضية مسخرة سننها ونواميسها وطاقاتها المذخورة للإنسان كي يحقق هدفه ذاك، نجد الماركسية كنتيجة لمنطلقها المادي الصرف تحصر مدى (العدل) في تنفيذ مطالب الإنسان المادية فحسب، وتغفل، بل تقف حرصاً منها على تنفيذ وحماية سمتها الطبقية ونزعتها الجماعية بمواجهة سائر المطالب الأخرى روحية ونفسية وفكرية ووجدانية واجتماعية.. كما أنها تجعل الطبيعة، بحركتها الدينامية الأبدية القائمة على تحاور النقيضين، هي السيد المطلق، وليس الإنسان سوى (منفذ) غير حر ولا مريد لمشيئة هذا السيد.. وأنَّه أياً كانت المرحلة الاجتماعية التي يمارس فيها علاقاته، المرحلة المشاعية، أم مرحلة الرق، أم مرحلة الإقطاع، أم الرأسمالية، أم الاشتراكية، فإنه إنما يفعل ذلك بأمر من الطبيعة، ووفق مقاييس صارمة من عبودية الإنسان لسنن الطبيعة، لا محيص له عنها أبداً.

وهذا الموقف المعاكس يمثل، ولا ريب، نزعة من أقسى النزعات الجبرية التي شهدها التاريخ، تقف ومسألة (العدل) على طرفي نقيض...

وإن كانت التحليلات (التبريرية) الجديدة للماركسية تريد أن تبين أن هذه الجبرية المتطورة وفق حركة الجدلية هي التي تدفع الماركسية إلى مزيد من الإيمان بفكرة التقدم والعمل الثوري الدائم للإسراع بالجدل الطبيعي المحتوم إلى غايته... وهذا التبرير يمثل، ولا شك، تناقضاً في صميم المفهوم الماركسي للعلاقة بين الإنسان والعالم، تلك العلاقة التي صدر فيها حكم ماركس من أن الطبيعة، لا الإنسان، هي التي تغير وتبدل في وسائل الإنتاج، فظروفه، فمؤسساته الحضارية الفوقية التي تنبثق عنه متشكلة به، ومتلونة بلونه.

وبينما يسعى الإسلام إلى تأكيد وتعزيز وحماية المؤسسات الاجتماعية الأصيلة كالأسرة، تلك التي ترتبط بالتجربة الاجتماعية أشد الارتباط، والتي أثبت التاريخ ضرورتها وصلاحيتها لنمو المجتمعات نمواً صحياً سليماً... نجد الماركسية تسعى إلى تدميرها وتفكيكها وإلغائها، فتدمر على المرأة بهذا أنثويتها وحقوقها العاطفية والنفسية والاجتماعية المترتبة على تكوينها ذاك، وتستل من الطفل كل أسباب تربيته الصحيحة ونموه الطبيعي السليم، وتفقد الرجل أعز ما يطمح إليه من الاستقرار إلى شريك في الحياة وسكن إلى عطفه وحنانه، ومن رغبة (سايكولوجية) متأصلة في تحدي الفناء بإنجاب ذرية مستقلة، غير هجينة أو مختلطة، تحمل اسمه وحده[1]...

وبينما يسعى الإسلام إلى تأكيد مفاهيم العدل الموضوعي الذي لا يميل ولا يتحيز ولا ينحرف باتجاه عاطفة أو هوى أو مصلحة أو جماعة ما؛ يرتبط بها الإنسان المسؤول ارتباطاً عرقياً أو اجتماعياً أو مذهبياً ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ

---

(١) من المستحسن أن نشير هنا إلى ما ذكرته صحيفة Wenhuipas الشيوعية الصينية التي تصدر في شنجاي، إبان الثورة الثقافية، في مقال كانون الأول سنة ١٩٦٧م عنوانه (مواجهة نقد الأسرة عمل ممتاز)، ذلك النقد الذي يوجه هجوماً غير مباشر على ذلك الموقف المليء بالاحترام تجاه حياة الأسرة.

ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[1] . . .

﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ﴾[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ﴾.

﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾[3].

وبينما يلزم المسلمون برفض مبدأ (الغاية تبرر الواسطة)، واعتماد القيم الأخلاقية والإنسانية خلال حركتهم صوب أهدافهم ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ﴾[4] . . . ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلْهَوَىٰٓ أَن تَعْدِلُوا۟ ۚ وَإِن تَلْوُۥٓا۟ أَوْ تُعْرِضُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[5] . . . نجد الماركسية تلتزم عدلاً نسبياً يميل مع الهوى، ويقيس الأمور بمقياس طبقي محدود، إذا جاز لنا أن نسمي ذلك عدلاً، وتضيع في غمار هذه النسبية المتغيرة، والطبقية الضيقة، صيحات المظلومين ومغتصبي الحقوق من كل جنس وفئة ولون. . . كما نجد الماركسية تلتزم المبدأ الماكيافللي المعروف (الغاية تبرر الواسطة)، وتعتمد أشد الأساليب اللاأخلاقية للوصول إلى أهدافها. . . ومن منا لم يسمع قول لينين المشهور: (اكذب واكذب واكذب حتى يصدقك الناس)!! أو يشهد مذابحهم ومجازرهم كتكتيك حزبي مرحلي في صراعهم اللاأخلاقي الطويل؟!.

---

(١) المائدة: ٨.
(٢) الأنعام: ١٥٢.
(٣) النساء: ٥٨.
(٤) الأعراف: ١٨١.
(٥) الشورى: ١٥.
(٦) النساء: ١٣٥.

وبينما يسعى الإسلام لإتاحة المجال أمام الإنسان للتعبير بحرية عن أكبر قدر ممكن من طاقاته وإمكاناته، على مستوى الروح والمادة، الأمر الذي لا يزيد في سرعة الإنجاز الحضاري فحسب، بل يكسبه تنوعاً وإبداعاً على شتى المستويات[١]، دون أن يعني ذلك إهمال الإسلام لمسألة (الوحدة) التي تجتمع عليها (الجماعة الإسلامية) في قيمها الأساسية وعلاقاتها الاجتماعية العريضة وأهدافها المصيرية... وكثيرة هي التأكيدات التي صدرت عن مفكرين شرقيين وغربيين على أن الحضارة التي ينشئها الإسلام هي حضارة (الوحدة والتنوع)، حيث إنه بدون هذا التوازن والتكامل والانسجام بين القطبين لن يكون هنالك عدل بالمفهوم الشامل الكلمة... نجد الماركسية ترغم (الفرد) على أن (يتشكل) وفق القالب الاجتماعي، وأن يحجر على طاقاته وإمكاناته لكي لا تتفجر إلا على طريق (الطبقة الحاكمة)... وأن ينقلب في كثير من الأحيان، على سمته الذاتية، وتكوينه النفسي، وبصمات أصابعه، وأشواقه ومطامحه، مادامت هذه جميعاً لا تتناغم مع متطلبات النوتة الجماعية ذات اللحن الأبدي الدوري المتكرر، والمسيرة الجماعية المتشابهة الصماء التي تذكرنا بمجتمعات النحل والنمل التي لا تملك وراء (الإنتاج والنظام) أملاً أو مطمحاً أو هدفاً بعيداً!! الأمر الذي يدفع عدداً كبيراً من ذوي الطاقات المبدعة والقدرات الخلاقة إلى أن ينشقوا على هذا المجتمع، ويرفضوا الانتماء إلى قيمه ومبادئه، انشقاقاً يتمثل في عمليات هروب مستمرة خارج حدود التجربة، أو في الانتحار...

وبينما يسعى الإسلام إلى تأكيد (الوازع الذاتي) وحمايته وحثه على العمل والخلق بالجزاءات الدنيوية والأخروية، وفرض رقابة داخلية غير قسرية تنبع من أعماقه بفعل (الإيمان والتقوى)، ولا تجيء من (السلطة)

---

(١) انظر بحث: ملاحظات في المجتمع الإسلامي والتعبير الذاتي، في كتاب (في النقد الإسلامي المعاصر) للمؤلف.

إلا في آخر لحظة، الأمر الذي يجنبه الوقوع في مآسي الأثرة والأنانية والخيانة والاستغلال، وكل ما ينتج عنها من مساوئ أخلاقية تنعكس بالتالي على مدى الحضارة كله... وبينما يدفع الإسلام إنسانه لتقديم أكبر قدر ممكن من (الإتقان) في إنجازه بدافع (الإحسان)، الأمر الذي يحمي المعطيات المختلفة من الغش والتزوير. نجد الماركسية ـ قبل أن تصطدم بعوائق الفطرة بعد محاولة تطبيقها ـ تسعى إلى إلغاء هذه النزعة المتأصلة في الإنسان، كما يقرر علم النفس، لأنها لا تنسجم ونظريتها القائلة بتساوي أبناء الطبقة الواحدة المطلق أمام حركة التاريخ.

وهي من أجل أن تدفع هؤلاء إلى (الإنجاز) وتبعدهم عن ممارسة الأخلاقيات السالبة، تستخدم معهم أقسى أنواع القسر الخارجي والرقابة المباشرة (وليس كما يقال من أن تحقق المجتمع الشيوعي سيؤدي بالضرورة إلى زوال كل الأخلاق السالبة التي ولدتها عهود البورجوازية من غش وسرقة وتزوير ورشوة... إلى آخره، بدليل ما يحدث في البلدان الشيوعية من قبول واسع النطاق للرشوة، ومن سرقات تكبر وتصغر حيثما أمن السارق رقابة السلطة، ومن متاجرة واستخدام للمواد المحرمة قانونياً، كما حدث أخيراً، وعلى نطاق واسع، في بعض جمهوريات الاتحاد السوفييتي).

وبينما يمدُّ الإسلام نطاق الجزاء تجاه السعي البشري إلى يوم الحساب العادل الدقيق، حيث لا يظلم الناس أعمالهم، ولا يغبنون سعيهم، وحيث يرى ويوزن كل جهد وكل نشاط، صغيراً كان أم كبيراً، وحيث لا يفلت من قبضة الحق مجرم أو طاغ أو ظالم تمكّن من التخفي والفرار من العقاب في الأرض... أو نفد عمره وهو في مركز القوة والجاه والسلطان، فلم يستطع مضطهد أو مظلوم أن يمسَّه بيد أو لسان!! الأمر الذي يلقي في أعماق كل إنسان بقدر من الاطمئنان والإحساس البصير بالعدل الشامل الذي إن أفلت من موازينه أحد في الأرض، وما أكثر الذين يفلتون (وإلا فأين العقاب

الأرضي الذي نال ستالين وقد ساق إلى المقصلة مئات بل ألوفاً من زهرة مواطنيه؟)، فإنهم سوف يرتطمون بأعمالهم يوم الحساب، ولن يكون هنالك فرار أو خلاص...

بينما يؤكد الإسلام هذا، نجد الماركسية، بنفيها ليوم الحساب، تقصر جزاء الإنسان على الأرض، وما أكثر ما يضيع هذا الجزاء، وما أكثر ما يذهب إلى غير أصحابه الحقيقيين، أو تحجبه يد تنطلق من مركز القوة لعزل الجزاء عن ألوف الناس المخلصين، مبررة ذلك بألف أسلوب، ليس أقلها رواجاً ادعاء تآمرهم على الحزب والدولة!!.

وبينما يمد الإسلام نطاق ثورته إلى كل المساحات التي يمارس فيها الظلم والخطأ والطغيان في الحياة البشرية، أيّاً كان شكله ماديّاً أو روحيّاً، اجتماعياً أم أخلاقياً، ظاهراً أم باطناً، ويجاهد بشكل دائم كل سلطة جائرة، وإرادة شاذة طاغية تسعى إلى أن تجبر الناس على اعتناق ما لا يؤمنون به، والتزام ما لا يريدونه، وترغمهم على تغيير مواقفهم ومواقعهم الصحيحة المناسبة في خارطة العالم، إلى مواقف ومواقع قسرية، منحرفة... يجاهدها من أجل منح حرية الاعتقاد للإنسان، وإتاحة المجال أمامه لاختيار الموقع الصحيح الذي ينسجم وطاقاته وقدرته وحصيلة مكوناته البيئية والوراثية.

وبينما يتسع مفهوم (الجهاد) ويمتد إلى كل المستويات الفكرية والنفسية والجسدية لكي يغطّي تطلُّعات الإنسان في الكون تغطية دقيقة كاملة ومسؤولة، ويعتمد قدراً من المرونة تجعله لا يتجاوز (الكلمة) و(الجدل) و(الإقناع الحر)، لكي يتحوَّل إلى القوة ويرفع السلاح ويستبيح الدم، إلا في اللحظة التي تصده فيها السلطات والزعامات والقيادات الجاهلية عن المضي في طريقه إلى قلب الإنسان وعقله وضميره.

نجد الماركسية تحصر نطاق الثورة على المستوى الطبقي، وتسفك الدماء لمبررات مادية صرفة، وتقطع أعناق الناس لأسباب (جزئية) تقوم على مجرد التفاوت في مقدار ما يملكه الإنسان من مال، أو جهة النظر التي يعتنقها... وهي خلال ذلك كله ترى أنها غير حرة في عمليات القتل هذه، إنما هي مأمورة بمنطق حركة التاريخ الجدلية السائرة دوماً إلى الأمام... وهي خلال ذلك لا توسع نطاق نظرها لكي تشمل الإنسان كله: جسداً وفكراً وعاطفةً وروحاً ووجداناً، وتغطي طبيعة موقفه في الكون كإنسان يختلف في تركيبه وممارساته عن سائر الخلائق، وفي مطامحه التي تتجاوز حدود الطعام والشراب إلى آفاق بعيدة جديرة بمكانته في هذا العالم.

وبينما نجد الإسلام يسعى إلى تحرير الإنسان وجدانياً، ومن أعمق أعماقه، وينتزع كل بذور الخوف والتملق والخضوع من قلبه، ويجعله يرفع رأسه باعتزاز، ويرفض الانحناء والتقرب لأية سلطة في الأرض، فلا يخضع إلا لله، ولا يعبد إلا الله، الأمر الذي يمنحه إحساساً ثوريّاً أصيلاً، ويدفعه دفعاً، وهو يحمل شعار ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ إلى التحرك لمجاهدة كل القوى التي تقف بمواجهة (الحق) الذي ينتمي إليه، ودونما رغب أو رهب...

وبينما نجد السلطة الإسلامية (الحقة) ترفض، ابتداء، أي تميز عن الجماهير، وتستأصل من الأعماق أية خاطرة أو إيحاء بتفوقها عليهم، وتجاهد أية وسوسة بالاستعلاء، وبالتالي دفع الناس إلى أن يتخذوا المواقع السفلى، ولا ينظرون إلى زعاماتهم إلا نظرة الإعجاب الوثني المذلّ... فأبو بكر (رضي الله عنه) يعلن في خطبه (.. أيها الناس، إني قد وليت عليكم ولست بخيركم..)، وعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) يعزل خالد بن الوليد (رضي الله عنه) خوفاً من (افتتان) الناس به!! ذلك الافتتان الذي يبدأ هيناً ميسوراً، ثم يتطور ويتضخّم حتى يقف بمواجهة عقيدة التوحيد الخالصة في الإسلام كنقيض لها... ويعلن عمر يوماً عن اجتماع في مسجد المدينة،

فيصعد المنبر، قبالة جماهير المسلمين ويقول: (لقد رأيتني من قبل أرعى لخالات لي من بني مخزوم، وأستعذب لهن الماء، فيقبضنني القبضة من التمر أو الزبيب..) ثم ينزل الخليفة، فيسأله ابن عوف: ماذا أردت بهذا يا أمير المؤمنين؟ فيجيبه: (ويحك يا بن عوف، خلوت إلى نفسي فقالت لي: أنت أمير المؤمنين، وليس بينك وبين الله أحد، فمن ذا أحسن منك؟ فأردت أن أعرفها قدرها!!).

وغيرها عشرات، ومئات من مواقف الرفض الصارم لكل ما من شأنه أن يحدِث تمييزاً بين المسؤولين والجماهير على أي مستوى كان...

وكان الرسول ﷺ قد قال ـ من قبل ـ لرجل ناداه: (يا سيدنا وابن سيدنا): (لا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي). وقال، وقد رأى رجلاً يرتعد أمامه: (هوِّن عليك، فإني لست ملكاً، إنّما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد)!!

هذا بينما تتحول الماركسية بأتباعها، أكثر فأكثر، صوب نوع خطير من التعبد الوثني، والتخوف الذي يشل حرية الإنسان وقدرته على الحركة والإبداع، إزاء مؤسسات الدولة والقيادات الحزبية، وإزاء (الزعيم) الذي يبلغ من إعجاب الناس العاديين في المجتمعات الشيوعية به، وتخوفهم من سلطته الهائلة الظاهرة والخفية، ويده الباطشة التي تصل كل من يلوك كلمة أو يمارس همسة ضده، بما يمتلكه من أجهزة بوليسية رهيبة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً في تنظيمها ودقتها وسريتها وامتدادها وآلاتها المخيفة وأساليبها في الكشف عن المعارضين، وفي التوغل إلى أعماق سرائرهم لدفعهم إلى عرضها بكل دقائقها ومنحنياتها أمام المحققين... وبما تمارسه أجهزة الإعلام من مبالغة وتمجيد وتهويل... يبلغ هذا كله بالناس العاديين وبالجماهير عامة إلى حالة من التعبد والتقديس لزعمائهم تفوق في خطورتها

كل تجارب الوثنيات القديمة والكهانات الجائرة والسلطات القيصرية والكسروية الظالمة المنقرضة (كما حدث ويحدث في تجارب الستالينية والماوية)، الأمر الذي يقتل في أعماق الإنسان الشيوعي كل إحساس ثوري حقيقي، وينتزع من نفسه آخر أسلحته الإنسانية في الرفض والمعارضة والتصدي، كما دفع زعماء الاتحاد السوفييتي، في صراعهم مع الصين، إلى اتهام ماوتسي تونغ بالبورجوازية والترفع على الجماهير، ردّاً على اتهامه إياهم بالإمبريالية!!

٢

وليست هذه المواقف الماركسية جميعاً من العدل، بمفهومه الشامل، في شيء.. فليس من العدل أن تقلص دوافع الإنسان وحاجاته ونوازعه ومناشطه إلى حدها الأدنى الذي يستوي فيه مع الحيوان، متمثلة بالطعام والكساء والجنس، وتبقى الحاجات الأخرى مضطهدة مراقبة، أو غير مشبعة على الأقل... وليس من العدل أن يحجر على حرية الإنسان وحركته الذاتية باعتبار أن هذا خروج على سنن الطبيعة القائلة بالتساوي المطلق أمام حركة التاريخ... وليس من العدل إذلال الإنسان وذلك بإقناعه جدلياً بأن علاقته بالطبيعة ليست علاقة حرية وفعل اختياري، وإنما علاقة خضوع واندماج وتقبل... وليس من العدل أن تكبت طاقات الإنسان الخلاقة وتقسر على أن تتشكل وفق ما يراد لها لا ما تريده هي... وليس من العدل أن يدمر على الناس وازعهم الذاتي بحرمانهم من أي جزاء مناسب يكافئ معطيات هذا الوازع في منحنياته المختلفة... وليس من العدل أن يحكم على الأسرة كمؤسسة اجتماعية أصيلة، بأنها مظهر عارض من مظاهر وانعكاسات البورجوازية البائدة، وأنها يجب أن تزول، وبذلك تلحق بأطراف هذه المؤسسة: الرجل والمرأة والطفل، خسائر فادحة لم يشهد تاريخ الاجتماع

لها مثيلاً. . . وليس من العدل أن يحدد الجزاء بفرصة الحياة الدنيا القصيرة المحدودة، ذلك الجزاء الذي قد يموت أصحابه الحقيقيون، ويأكلهم الدود، قبل أن يثبت حقهم النهائي فيما كانوا يستحقونه من جزاء حرموه حتى في أشد الدول عدلاً ومساواة. . . وليس من العدل أن تزيف مقاييس العدل الموضوعي وتتحول إلى معايير نسبية تميل مع الهوى والمصلحة، أو أن يعتمد أسلوب لا تقره الأخلاقية البشرية وبداهاتها الأساسية في ميادين العمل المختلفة. . وليس من العدل أن تضيق دائرة (الثورة) وتضغط لكي توجه توجيهاً طبقياً فحسب، لا يتجاوز نطاق الحاجات الأساسية المادية للإنسان، بينما هنالك عشرات من الحاجات الأخرى تنتظر من يثور من أجلها و يمنحها حقها المشروع. . . كما أنه ليس من العدل أن تمارس بسبب الرعب والقسر والبوليسية أنواع أخطر من التعبد الوثني الذي يحول زعماء (الشيوعية) إلى آلهة في الأرض، ويمسخ جماهير الناس إلى قطعان من العبيد فيما يمكن أن نطلق عليه: الرق الجماعي الجديد!!

فكل المواقف (النقيضة) التي يقفها الإسلام إذاً من هذه المسائل الأساسية في العلاقات بين الإنسان والمجتمع والسلطة والطبيعة والتاريخ، إنما هي (المواقف) التي تنسجم والمفهوم الشامل (للعدل)، لأنها تضع الإنسان في موضعه، وتقدره حق قدره، بأن تمنحه مع المساواة (الحرية) التي بدونها لن يكون إنساناً!!.

٣

ولكن هل يكون الإسلام، بتغطيته الشاملة للعدل، قد أهمل أو أنه لم يول اهتماماً كافياً على الأقل لمسألة العدل في إطارها الاقتصادي؟! وهل من المحتوم، إذا ما التزم مذهب ما جانباً من جوانب الحياة البشرية، وصب كل جهوده عليه أن يغفل أو يهمل الجوانب الأخرى؟ هل من

الضروري أن يترك الإسلام المسألة الاجتماعية في إطارها الاقتصادي (للظروف) تتكفل بحلها وتشكيلها، ما دام قد منح البشرية هذا القدر من العدل بمفهومه الكوني الشامل؟ تماماً كما كان محتوم على الماركسية أن تضحي بجوانب العدل الشاملة، بما فيها الحرية، وموقف الإنسان المسؤول في الكون، ما دامت قد حققت المساواة شبه التامة في عالم العلاقات الاجتماعية الاقتصادية؟.

الجواب: كلا!! ليس هذا الخلل والجنوح في (الموقف) بالأمر المحتوم.. ومن أين تجيء هذه الحتمية بالنسبة لدين لا يؤمن بالحتميات؟! إن الإسلام، وقد برمج العدل في آفاقه الشاملة، رسم في الوقت نفسه خططه ومشاريعه لتنفيذ وحماية الجانب الأهم والألصق بالحياة اليومية من العدل، ذلك هو العدل الاجتماعي في مرتكزيه الأساسيين: الكفاية، وتكافؤ الفرص، ونحن نستطيع أن نحظى بحشد كبير من الآراء والنصوص والقيم والمواقف التي طرحها القرآن والسنة، واجتهادات الصحابة والتابعين ومن تلاهم من الفقهاء والمفكرين، أو التي شهد التاريخ الاسلامي نماذج ووقائع منها لم تجئ جزافاً، ولا يمكن لباحث جاد أن يجردها من دلالاتها الحقيقية... إن هذه (النصوص) و (المواقف)، نظرية وتاريخية، يمكن، بمجرد عرضها وفق نسق معين، أن تجيبنا على هذا السؤال، وأن تقدم لنا الكثير من القيم والدلالات والقناعات في مسألة تعد اليوم في طليعة المسائل الفكرية والحيوية.

وسأكتفي في هذا البحث الموجز، بعرض نماذج من هذه (النصوص) و(المواقف) مقتصرة على القرآن والسنة، وفق نسق معين يبين لنا بنفسه، كم هو بعيد عميق اهتمام الإسلام بالمسألة الاجتماعية، وكم هي واسعة شاملة أصيلة حاسمة مواقفه إزاء تداول الثروة وتوزيعها، وكم هي أكيدة بيّنة إرادته في تحقيق (التوازن) بين الناس، وفي ألا يكون (المال) (دولة بين الأغنياء).

٤

إن اقتصار هذا البحث على الجانب (الجماعي) في الإسلام، وعدم الإشارة إلا عرضاً إلى (المسألة الفردية) و(حق الفرد في التملك) كجزء أساسي من حقوقه كإنسان، لا يعني أبداً رفض هذا (الحق)، أو إنكاره، أو تضعيفه على أقل تقدير، ولن يملك أحد كائناً من كان أن يمارس هذا التزييف إزاء مبادئ الإسلام الذي أكد حقوق الفرد وعلى رأسها (حق التملك) الذي هو حق أساسي أصيل يكاد يصل حد القدسية، لأنه، كما هو بديهي نفسياً واجتماعياً وتاريخياً، امتداد لشيء أصيل في الإنسان ذاته، لفطرته المقدسة. ومن منا لم يسمع حديث الرسول ﷺ: (... ومن مات دون ماله فهو شهيد)؟، وحديثه: (لا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه)؟

إن انتهاب مال الآخرين، بدون وجه حق، هو مواجهة لكرامة الإنسان، وانتهاك لأحد حقوقه الأساسية الثابتة. وكما أن الجائع في الإسلام له أن يقاتل الذين حرموه الطعام فإن قتل هو قتل شهيداً، وإن أطيح بمجوّعه ذهب الأخير إلى لعنة الله، كما يقول (ابن حزم) وكما سنعرض له فيما بعد، فإنه بالمقابل من دافع بالحق عن ماله (الحلال) ومات دونه مات شهيداً، فإن أطيح بالذي يحاول اغتصاب حقه المشروع ذهب بالضرورة إلى لعنة الله!!.

تلك هي المعادلة الرياضية الأبدية في الإسلام، أنه في كل مواقفه يحدث هذا التوازن المنفرد العجيب الذي لا يميل يميناً ولا يساراً والذي يقف دائماً في نقطة (الوسط)... هذه النقطة العادلة، الإيجابية، التي حدثنا عنها القرآن الكريم وهو يصدر حكمه النهائي على دور المسلمين في العالم: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾.

والإسلام، في هذه المسألة، يتخذ ذات الموقف بين (الأنا) و(الآخرين)، وهذه هي السمة الحاسمة التي تجعل المسألة الاجتماعية في الإسلام تبعد كلية عن أن تكون رأسمالية أو مشاعية، وإذا كنا في هذا البحث نتناول إحصائياً وتحليلياً اعتماداً على منبعي الإسلام: القرآن والسنة، رفضه القاطع للموقف الأول (الموقف الرأسمالي)، فإننا لا بد وأن نشير، من أجل ألا يثور أي التباس، إلى رفضه للموقف الثاني الذي يلغي حق الملكية فيما يلغيه من أبعاد الذات البشرية المتفردة، ويدمج الأفراد جميعاً، على تغايرهم وتمايزهم في وحدة قسرية صماء.

ولقد تبين بالنسبة للمسألة الاجتماعية التي نعالجها، بالمقاييس العملية التجريبية وبالأدلة التاريخية المتزايدة، فشل هذا (الموقف) وتراجعه أكثر فأكثر صوب إقرار حق الفرد في التملك، ذلك الذي ينبثق عن وازع متأصِّل في نفسه تأصل الشعيرات والشرايين، وأنه دون منح هذا الحق، فإن هذا الوازع سيرد على (الفعل الخاطئ) بفعل معاكس خاطئ هو الآخر، فيضرب في سورة من الغضب الباطني عن التفجر والعطاء والإبداع. ونحن هنا نكتفي بإشارات موجزة فحسب كيلا نخرج عن الموضوع، ولكي نلتقي مرة أخرى مع عدالة الموقف الإسلامي على كل المستويات:

١ـ أشارت إحدى الإحصائيات أن نسبة (٩٨٪) من مزارع البطاطا في الاتحاد السوفييتي ملك للدولة، وأن (٢٪) فقط تمثل ملكية خاصة، وأن نسبة إنتاج هذه الاثنين في المئة بلغت ٥٠٪ من إنتاج الاتحاد السوفييتي كله من هذا الغذاء.

٢ـ أشار تقرير إحصائي آخر إلى أنه درست نسبة إنتاج عدد معين من مهندسي الاتحاد السوفييتي، وقورن بنسبة إنتاج نفس العدد في إحدى دول الغرب الرأسمالي، فتبين أنه لا يزيد على النصف، الأمر الذي دفع

مؤسسات الاتحاد السوفييتي إلى أن تزيد من اعتمادها على الوازع الذاتي للمهندس السوفييتي من أجل أن يعطي أكثر!!

٣ـ ليس إجراء لينين الشهير عام (١٩٢٤)، بعد أقل من سبع سنوات على قيام الثورة الشيوعية، والذي أعاد فيه نظام تمليك الأراضي، بعد التدهور الشامل الذي شهده الاتحاد السوفييتي من جراء التأميم الكامل لوسائل الإنتاج، ليس هذا الإجراء الأول والأخير بهذا الصدد.

٤ـ عندما اتضح استحالة تحقيق الشعار الماركسي (من كل حسب طاقته، ولكل حسب حاجته) في تجربة الماركسية في روسية وشرقي أوروبة استحدث النظام الشيوعي ما سمّاه بالحافز الفردي في الإنتاج، وهو نسبة في زيادة أجر العامل تعطى له سنوياً حسب زيادته في الإنتاج المقنن للمستوى المتوسط للعامل(١). كما أن بعض دول شرقي أوروبة أعادت السماح لمواطنيها بتملك الدور والسيارات وبسلّم نصيبهم من الميراث!!.

٥ـ تحدث سكرتير الحزب الشيوعي الروماني بمناسبة ما سمي بالهجوم لمدة أربعة عشر يوماً على نظام الاقتصاد في رومانية وعدم كفايته، كما نقلت حديثه مجلة الإكونومست البريطانية في عددها الصادر في ٢١ كانون الثاني سنة ١٩٦٧م (ص٢٢١) تحت عنوان: (التفوّق في الاقتصاد الاشتراكي) «لا يمكن أن نتحدث عن تفوّق الاشتراكية على الرأسمالية طالما أن بعض الدول الرأسمالية المتقدمة تنتج أرخص أنواع السلع وأجودها. إننا عندئذ غير قادرين على أن نبرهن على هذا التفوق. إن ضعف نظام الاقتصاد في رومانية يختفي وراء النسب النظرية والافتراضية في التخطيط في زيادة النمو (الإحصائيات التخطيطية). وقد بدأ الرومانيون يدركون الآن أن هذا الضعف (أ) كما هو في النوع وفي نفقات الإنتاج (ب) هو أيضاً في كميته.

---

(١) محمد البهي: تهافت الفكر المادي التاريخي، ص٥٢ ـ ٥٣.

وقد أبدى سكرتير عام الحزب الشيوعي في رومانية في اجتماع ٢٣ كانون الأول سنة ٩٦٦ للجنة المركزية، عدة ملاحظات لا يمكن معها، كما يقول، أن تتحمل رومانية طويلاً، وتقف بعيداً عن الإصلاحات الاقتصادية التي تجري الآن في دول شرق أوروبة. وليس المجال أن تعلن المشروعات القيادية للمصانع التي لها شبه استقلال، وليس كذلك هو مجال المدح والثناء للتجارب الاقتصادية في الدول الاشتراكية... إنما هو مجال الكلمات القاسية التي تهز الرسميين في الحزب من سباتهم، ويعلن: أن رومانية لم تزل بلداً متخلِّفاً، ويذكر في هذا الصدد أن صنوف الآلات التي صدرتها رومانيا في سنة (١٩٦٤م) كان يساوي الطن منها (٤٢٠) جنيهاً بالقياس إلى ما يساويه في بلغاريا من (٥٠٠) جنيه وفي فرنسة من (٩٦٨) جنيهاً وفي سويسرة من (١٧٢٤) جنيهاً. وإن الفلاحين الذين يكوِّنون نسبة أكثر من نصف السكان العاملين يعملون فحسب ثلث الوقت المخصص للعمل.

ويقول: إنَّ التخلف كان السبب في ارتفاع الأسعار للإنتاج ارتفاعاً ظاهراً تقريباً إلى ما يعادل النصف في البلاد المتقدمة إذا نظرنا إلى الاقتصاد ككل. وكان السبب كذلك في أن إنتاج العامل في رومانية أقل بمقدار النصف أو الثلاثة أضعاف عن العامل في إيطالية وفرنسة وألمانية الغربية. إن الأيام عديدة، تلك التي يطمئن فيها العامل إلى الاحتفاظ بوظيفته، ومع ذلك لا يسهم في إنتاج الاقتصاد إلا قليلاً. هل يمكننا أن نحول المصانع إلى مؤسسات خيرية؟ إن ألفاً وثلاثمئة وسبعين سلعة من الإنتاج أسفرت عن خسارة في العام الماضي بما يقرب من مئتين وأربعين مليوناً من الجنيهات الإسترلينية في عام (١٩٦٦م)، بينما يبدو الوضع سيئاً أيضاً في عام (١٩٦٧م)، حيث العجز في الميزانية الوطنية يقدر بحوالي مئتين وخمسة عشر مليوناً من الجنيهات الإسترلينية»[١].

---

(١) المرجع السابق، هامش ١ ص ٥٢ ـ ٥٣.

٦- يعرض الدكتور مصطفى السباعي في مقدمة كتابه (اشتراكية الإسلام) صوراً مما شاهده خلال زيارته للاتحاد السوفييتي عام (١٩٥٧م) «لقد رأينا بأم أعيننا أن الاتحاد السوفييتي، وهي الدولة التي تمثل أقصى اليسار في المذاهب الاشتراكية، يتفاوت فيها الناس في مستوى المعيشة، وفي الدخل الشخصي، وفي الادخار، وفي التمتع بمتطلبات الحياة. فمن عامل دخله الشهري (٥٠٠) روبل في الشهر إلى رئيس جامعة راتبه الشهري (١٥٠٠٠) روبل في الشهر، ومن مواطن يسكن غرفة صغيرة في بناء متواضع إلى وزير أو موظف كبير أو حزبي بارز يسكن قصراً فخماً وله سيارة فخمة!!! بل رأينا بأعيننا في قلب موسكو الشحاذين يقفون على باب مسجد موسكو يمدون أيديهم بالسؤال، ويعطيهم الناس ما يجودون به عليهم! وقد التقطت بنفسي صوراً لهذا المنظر لا تزال محفوظة لدي. ولقد قال لي أحد رجالات الاتحاد السوفييتي أنهم يزعمون أن الشيوعية تحرم الملكية الشخصية، وها أنا أريك دفتري الخاص بتوفيري المدخر في البنك. فإذا رصيده المسجل باسمه يزيد على سبعة آلاف روبل. فسألته: هل هذا الادخار مما يسمح به النظام الشيوعي كما وضعه كارل ماركس؟ وبعبارة أخرى: هل أنتم تطبقون النظام الشيوعي؟ أم أنتم تطبقون نظاماً اشتراكياً؟ فتبسّم وقال: نحن لا نطبق الشيوعية كما هي!!».

ذلك إذاً هو موقف الإسلام من مسألة التملك والوازع الذاتي في اتجاهه العمقي (العمودي) المتوغل في نفس كل إنسان. وأما الاتجاه الأفقي للمسألة والذي يقوم على (ضرورة) التفاوت (النسبي) في مقدار التملك كمّاً ونوعاً، فإنه ينبثق هو الآخر عن قاعدتين أساسيتين:

أولاهما: الخلاف المحتوم والتمايز الذاتي وتباين الطاقات بين إنسان وآخر كنتيجة للمؤثرات البيئية والوراثية المتغيرة المتنوعة، ومن ثم كان بعض الناس أكثر مقدرة على (الكسب) من الآخرين (مع ملاحظة أن الإسلام

يرفض ابتداء اعتماد الأساليب غير المشروعة في عملية الكسب، والتي تتعارض مع مبدئه الأساسي في تكافؤ الفرص والكسب الحلال).

وثانية القاعدتين، لهذا الاعتماد الأفقي للمسألة، يبدو بوضوح في الآية القرآنية: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ﴾[(١)].

وهي قاعدة اجتماعية تقوم على تدرّج النّاس وفق سلم اجتماعي يتيح لهم التوصل في فاعلياتهم إلى حالة التعاون والتكامل والإبداع.

وهذه القاعدة ـ كأية قضية في واقع العلاقات البشرية ـ يمكن أن تكون سلاحاً ذا حدين؛ يبرز حدّه السالب في تحول هذا التدرج من حالته الإيجابية المرنة القائمة على التعاون والتكامل والإبداع إلى حالة من التنافر والتخاصم والصراع والتحاقد بسبب تحول التدرج تحولاً نوعياً وكمياً يقود إلى الطبقية المقيتة، التي لا تقتصر مقاييسها على ميادين المال والاقتصاد، وإنما تتعداها إلى كل المواقع الاجتماعية، فترفع إلى مرتبة النيل والشرف والسلطة أولئك الذين يملكون، وتنزل بالذين لا يملكون إلى أدنى المراتب الاجتماعية فتحرمهم وتستغلهم، وتحجب عنهم حقهم المشروع في التعبير عن قدراتهم وفق مبدأ تكافؤ الفرص، وهذه الحالة هي التي يرفضها الإسلام جذرياً، مما هو مدار بحثنا هذا، وهي التي تحذر منها، بشكل غير مباشر، الآية الكريمة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾[(٢)]، وهي الحالة التي تقابل، فيما يتمخض عنها من مساوئ، حالة المساواة القسرية المطلقة القائمة ـ هي الأخرى ـ على (حجب) الحق المشروع في التعبير عن الطاقات البشرية، ومكافأة الإبداع المتأتي عنها بما يوازي حجمه

---

(١) الزخرف: ٣٢.
(٢) الأنعام: ١٦٥.

كماً ونوعاً. . . كما تقوم على تدمير مبدأ تكافؤ الفرص. ومن ثم نجد أنفسنا مرة أخرى، إزاء خطأ يمارس بحق الإنسان، فرداً وجماعة، في منهاجي التعامل الرأسمالي والشيوعي على السواء. ونجد أنفسنا مرة أخرى كذلك أمام (وسطية) الموقف الإسلامي، وتعامله العادل مع (المسألة) الاجتماعية!!.

٥

تبقى بعد ذلك، المسألة الاجتماعية في الإسلام، في امتداديها التاريخي والفقهي اللذين يلتقيان حيناً لكي يخططا وينفذا على ضوء القرآن والسنة كما حدث في عصر الراشدين، وفي محاولتي عمر بن عبد العزيز ونور الدين محمود الانقلابية، وفي فترات عديدة، ويفترقان أحياناً لكي ينمو الفقه ويتطور في إطارات نظرية تلتزم حدود القرآن والسنة ومواقف الصحابة والتابعين، إطارات قدمت لتاريخ التشريع البشري والمذاهب الاقتصادية، حصيلة ضخمة من الآراء والاتجاهات والنظم النظرية. . . بينما يأخذ الواقع التاريخي مجرى آخر يقرب من مفاهيم الإسلام الاجتماعية حيناً، ويبعد أحياناً، ويشذ ويصطدم ويأخذ موقفاً عكسياً في أحيان ثالثة!!

وهذه المسألة، في جوانبها تلك، في أمسِّ الحاجة إلى أبحاث علمية رصينة، تعتمد منهجاً موضوعياً يصل إلى الحقائق المجردة بأكبر قدر من الصدق والأمانة، في عصر طغت فيه الأكاذيب باسم العلم والمنهجية، وراحت موجة أصحاب التفسير المادي للتاريخ، بعد تضاؤل حدة الموجات الاستشراقية الصليبية الأولى، تطلع على الناس بركام من الأبحاث والمؤلفات، تريد أن تقسر فيها تاريخنا كله، وبضمنه المسألة الاجتماعية، على أن تخضع لمخططاتها (القبلية)، ولمنهجها المفصل سلفاً على يدي ماركس وأنجلز، فتقبل من وقائع هذا التاريخ ومعطياته ما ينسجم مع المقياس المادي، وترفض وتزيف وتزور كل ما يندّ وينأى عن هذا

المقياس، وهو أسلوب يمارس في انتقائه اللاموضوعي وفي تزييفه وتحويره، منهجاً خاطئاً أشد في بعده عن روح العلم ومسؤولية البحث الجاد من أكثر المناهج الاستشراقية كراهية للإسلام وحقداً على تاريخه.

ومما يزيد الأمر سوءاً أن يتكئ عدد من صغار الباحثين والأكاديميين الجدد، من الذين لا يملكون وعياً تاريخياً أصيلاً، ولا نفساً طويلاً في البحث، على النظرية المادية في تفسير التاريخ، ويسعون إلى تغطية عجزهم بإجراء مطابقات ساذجة ومضحكة بين بعض العينات المختارة من تاريخنا، وبين جانب ما من جوانب التفسير المادي للتاريخ، فيقودهم هذا إلى نتائج خاطئة وأحكام جائرة ما أنزل الله بها من سلطان!!.

إن إحدى المنطلقات الأساسية لمعالجة المسألة الاجتماعية في الإسلام هو أن نفرق، بأمانة وعلمية، بين مراحل من تاريخنا نفذت فيها قيم الإسلام وبرامجه، بما فيها تلك التي تتعلق بالمسألة التي بين أيدينا، وبين مراحل أخرى عوملت فيها الوقائع الجارية والتجارب اليومية بمبادئ وقيم وبرامج ومواقف، تبعد بدرجة أو أخرى عن روح الإسلام وبداهات موقفه. بل إنها تطرفت في أحيان كثيرة، فاعتمدت أساليب وممارسات وقفت من الإسلام وبرامجه موقفاً متضاداً في أساسه.

وفرق كبير حاسم بين خليفة أو أمير أموي أو عباسي، تطربه أبيات من الشعر قيلت في مديحه، كذباً وتملقاً ورياء، فيقول مشيراً لصاحبها: أعطوه ألفي دينار... والناس في الخارج يتضورون جوعاً... وبين خليفة كعمر بن عبد العزيز على سبيل المثال وهو يقفل الأبواب بوجوه الشعراء المرتزقة، ويعكف مع كبار موظفيه وفقهائه لدراسة أنجع الأساليب في تنفيذ الضمان الاجتماعي، وفي إيصال الحقوق إلى أصحابها أيّاً كانوا... في إشباع الجائعين ومطاردة ظاهرة الفقر والحرمان في كل مكان... فرق بين أن تُسرق مئة أو مئتان من أموال الأمة لكي تمنح لقائد أو جندي يتفوق بمنطق

القوة على خصوم الخلافة الثائرين، وبين أن تعطي الدولة من مالها هذه المئة أو المئتين لكل من يقطع المسافات الطوال من المواطنين لكي يجيء إلى قاعدة الخلافة ويقول كلمة حق أو يرفع مظلمة. . .

فرق بين أن يلبس الخليفة أو الأمير الخز والديباج والعمائم المطعمة بالذهب، والأخفاف المنقوشة بأسلاك الفضة، وتفرش أمامه، في ليالي المتعة والغناء، ألوان من أطعمة وأشربة، تند حتى القواميس عن استيعاب تسمياتها، والناس في الخارج لا يجدون ما يلبسون ولا يعثرون على ما يأكلون. . . وبين خليفة يلبس قميصاً مرقوعاً بأربعة دراهم أو خمسة، ويتضور وأهله جوعاً، من أجل أن تلبس وتشبع جماهير أمته. . .

فرق بين من يأكل طعام الإمارة ويطعم الناس الخل والزيت، وبين من يأكل الخل والزيت ويطعم الناس طعام الإمارة!!

ولو شئنا أن نعدد المواقف المتضادة المتباينة في تاريخنا لعجزنا عن الاستقصاء[١]. . وحرام على باحث جاد، أن يمزج هذا بذاك لكي يطلع على الناس بجديد يقول فيه: إن تاريخ المسألة الاجتماعية في الإسلام لا يعدو أن يكون سلطة (بورجوازية) تَستغل، وجماهير (كادحة) تُستغل!!.

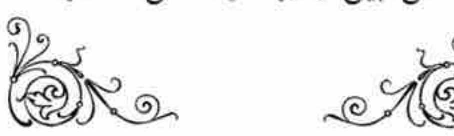
المهم أن المسألة الاجتماعية في الإسلام، بعد عصر الرسول ﷺ، في أَمسِّ الحاجة إلى مزيد من الدراسات هي الأخرى؛ سواء في امتداديها التاريخي الواقعي أم النظري الفقهي، وهي مساحة ما زالت بكراً في أبحاثنا، وإذا كان الكثيرون قد تناولوها بروح استشراقية صليبية، أو ماركسية مادية، ومارسوا إزاءها التزوير و التحريف، فإنها ما زالت تنتظر الأيدي (العلمية) (الأمينة) لكي تدلي بدلوها فيها. وإلا، فهل درست لحد الآن، دراسة إسلامية

(١) انظر: على سبيل المثال كتاب (ملامح الانقلاب الاسلامي في خلافة عمر بن عبد العزيز)، وكتابي (دراسة في السيرة) و (نور الدين محمود) للمؤلف.

أصيلة، حركات اجتماعية كثورات الزنج والزط والقرامطة على سبيل المثال، أو حللت المواقف الاجتماعية للسلطات الإسلامية في تاريخنا تحليلاً يضع ـ من زاوية إسلامية منهجية أصيلة ـ النقاط على الحروف، ويبين كم هو خطير ارتباط الترف والغنى ببعض هذه السلطات، ومسيره بها صوب التحلل والدمار.. . اللهم إلا ما فعله ابن خلدون في مقدمته الشهيرة بعلاجه المسألة الأخيرة وفق مقاييس إسلامية في كثير من الأحيان؟.

إن تاريخاً اجتماعياً تبرز فيه مواقف وتعلن كلمات كهذه التي قالها عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «ما من رجل إلّا وله في هذا المال حق، الرجل وحاجته.. والرجل وبلاؤه»، «إني حريص على ألا أدع حاجة إلا سددتها، ما اتسع بعضنا لبعض، فإذا عجزنا تأسينا في عيشنا حتى نستوي في الكفاف»، «لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول الأغنياء فرددتها على الفقراء».. . وهذه التي قالها علي (رضي الله عنه) «إن الله فرض على الأغنياء في أموالهم بقدر ما يكفي فقراءهم، فإن جاعوا أو عروا وجهدوا فبمنع الأغنياء».

إن تاريخاً اجتماعياً كهذا لهو بأمس الحاجة إلى أبحاث أصيلة تستلهم روح هذا التاريخ وخطوطه العريضة.. . وما كانت دراستي عن عمر بن عبد العزيز إلا محاولة أولية في هذا الميدان الفسيح، وليس عدم التوسع في المسألة في بحث كهذا الذي يجده القارئ بين يديه إلا لأن هذه الصفحات تقتصر على تتبع ملامح المسألة في القرآن والسنة فحسب، في محاولة من ضمن عشرات المحاولات التي قام بها غيري، تحتمل كرفيقاتها الخطأ والصواب.. . فليس إلا عند ماركس وتلامذته جهداً علمياً خالصاً، وتنبؤات مستقبلية لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها!!.




@Ahmedyassin90



القسم الثاني

مبادئ في كتاب الله


@Ahmedyassin90

مبادئ في كتاب الله

إن الإسلام، في قرآنه وسنة نبيه، يطرح قواعد عامة وخطوطاً عريضة يريد بها أن يشكِّل الأرضية الصلبة التي تتحرك عليها العلاقات الاجتماعية، والتي تمتد جذورها في أعماق النفس وبنية العالم وفي صميم النظرة إلى الكون.. وصحيح أنه يطرح في الوقت نفسه تفاصيل وجزئيات عن قضايا يومية ومسائل اجتماعية بالذات، ويلامسها ملامسة تامة، إلا أن الإطار الكبير، والرؤية الشمولية التي يرسمها الإسلام لموقف الإنسان في العالم، وطبيعة دوره فيه، والغاية التي خلق لها، والمصير الذي يسعى للتحقّق به من خلال ممارسته الواقعية، هي التي تهمّنا ونحن نرسم بعض آفاق العدل الاجتماعي كما جاء بها هذا (الدين القيم). ولنبدأ بمسألتي (الترف) و(الغنى الفاحش) كظاهرتين نقيضتين لفكرة العدل الاجتماعي.

ذلك أنه إذا اختفى العدل وانعدم التوازن ظهر الغنى الفاحش والترف، وإذا كان القرآن الكريم قد عالج (الترف) ـ والغنى الفاحش بطبيعة الحال ـ كمسألة هدّامة في كيان أي مجتمع، تنبثق عنها دوماً مواقف سالبة رجعية، وإجرامية كافرة، فمعنى هذا أنه يريد مجتمعاً متوازناً كبديل لحتمية ظهور الترف في (حالة اجتماعية غير متوازنة)... ولقد مد القرآن تحليله للظاهرة إلى أعماق النفس وأمداء العلاقات الاجتماعية مادية وروحية وفكرية وأخلاقية، وتقدم بها صعداً صوب الآفاق البعيدة والتحليلات الشاملة لكي ما يلبث أن يلقي أضواءه، ويقول كلمته في حجم الدور الذي يلعبه الترف إزاء مسيرة الحضارات ونموها وعوامل سقوطها ودمارها.

إن (الترف) ممارسة (مدمرة)؛ سواء للجماعة التي تسكت عليها وتغض عنها الطرف، وتغلو في انهزاميتها فتتملق وتتقرب وتداهن، أو للمترفين

أنفسهم الذين يعمي الثراء الفاحش، وما ينبثق عنه من ممارسة مرضية متضخمة مبالغ فيها، بصائرهم، ويطمس على أرواحهم ويسحق كل إحساس أخلاقي أصيل في نفوسهم، ويحجب عنهم ـ وهذا هو الأهم والأخطر ـ كل رؤية حقيقية لدور الإنسان في الدنيا، وموقفه في الكون، وطبيعة العلاقات المتبادلة بين عالمي الحضور والغياب، والمادة والروح، والطبيعة وما وراء الطبيعة، والأرض والسماء، فبما أكسب الترف نفوسهم وحسهم من خشونة وثقل وغلاظة، ثقلوا فانقطعوا عن كل رؤية بصيرة أو إيمان جاد يتجاوز بهم عالم الحضور إلى الغياب، والمادة إلى الروح، والطبيعة إلى ما ورائها، والأرض إلى السماء، والعلاقات المنفعية إلى المواقع الأخلاقية التي يتميز بها بنو آدم عن عالم النمل والنحل والحيوان. وهذا التحليل القرآني يقف في تضاد كامل مع الفرضية الماركسية التي تقول: إن الدين لا يعدو أن يكون جزءاً من الأخلاقيات والممارسات البورجوازية.

﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلْأَخِرَةِ وَأَتْرَفْنَٰهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾[1].

فها هي كلمات الله تبين لنا البعد الحقيقي والأهم لما يؤول إليه الترف: إنكار النبوات والقيم الغيبية، وكفر بها، وتكذيب بلقاء الآخرة، وعدم مقدرة على استخدام مقاييس دقيقة في وزن الحوادث والدعوات والأشياء، غير مقاييس الطعام والشراب... ثم حكم وقتي خاطئ سريع، بعد هذا، يرى أن الالتزام بأي نداء يخرج الإنسان عن دائرة علاقاته المنفعية المباشرة، ويصده عن الانغمار في الطعام والشراب، إنما هي صفقة خاسرة، تماماً وفق المنطق الذي يعتمده التجار!!

---

(١) المؤمنون: ٣٣ ـ ٣٤.

وما كان للمترفين، حماية لمواقعهم تلك، إلا أن يحرنوا، ويتمنوا على حركة التاريخ المحتمة أن تحرن معهم وتسكن. وهم في مواجهة أية دعوة جديدة، تدعو الإنسان للتقدم خطوات إلى الأمام يرفعون شعارات (السكون) و(الرجوع) إلى الوراء، خوفاً من أن تجرفهم الدعوة بعيداً عن أماكنهم. وفي أكثر من موضع يحدثنا القرآن عن رجعية هؤلاء المترفين: ﴿بَلْ قَالُوٓاْ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾[١]. وتكون الغلبة دوماً لكلمة الله: ﴿فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾[٢].

وفي آيات أخرى ينقلنا القرآن الكريم بسرعة، كشأنه في كثير من الأحيان، إلى يوم الحساب ليبين لنا المصير الذي سيؤول إليه المترفون، وليدينهم بالجرم الكبير الذي كانوا يمارسونه دوماً في مسيرة الحياة الدنيا: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ﴾[٣].

فكأن كلمة الكفر معلقة وقد أخلدوا بالترف إلى الأرض على ألسنتهم!! ليس هذا فحسب، بل إنهم وقد حملهم الترف إلى مواقع السلطة (والعلاقة

(١) الزخرف: ٢٢ ـ ٢٤.
(٢) الزخرف: ٢٥.
(٣) سبأ: ٣٣ ـ ٣٧.

الجدلية قائمة أبداً خلا التجربة الإسلامية الأصيلة بين الترف والسلطة، فأما أن يقود الترف إلى السلطة أو أن تقود السلطة إلى الترف)، اعتمدوا مواقعهم تلك، فأصدروا أوامرهم المشددة إلى الجماهير والأتباع، ليلاً ونهاراً، أن يكفروا بالله، وأن يجعلوا له أنداداً، ولن يكون هؤلاء الأنداد المعبودون من دون الله سوى هؤلاء الذين نقلهم الترف إلى مواقع الشرك والطغيان.

كما أنهم وقد جوبهوا بالنداء الجديد راحوا يحتمون بالأموال والأولاد؛ معتقدين أنهم بمنأى عن العذاب، قريباً كان أم بعيداً. وهو إحساس نفسي مؤكد لمن تخدعه (الكثرة) فتسوقه إلى الاعتقاد بقدرته على البقاء في موقعه بمواجهة أية دعوة جديدة. ولكن هذه المقاييس النسبية الخاطئة، تتهافت عبر حركة التاريخ الشاملة التي يسوقها الله بإرادة الإنسان. وتتبدى هذه الحماية الكاذبة التي هي ليست سوى امتحان إلٰهي موقوت على حقيقتها!!.

ومرة أخرى يعرض علينا القرآن صوراً حية شاخصة لهؤلاء وهم يتخبَّطون في العذاب، وينالون جزاء لا يعدو أن يكون من جنس عملهم نفسه: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾[1].

وما أعدل الجزاء الإلٰهيّ، أن المترفين الذين كانوا يتنعّمون في حياتهم الدنيا بألوان الطعام والشراب، والناس يتضورون جوعاً وعطشاً، والذين كانوا يقضون ساعات الحر اللاهب في الظلال الباردة الرطبة، والمعدمون

---

(١) الواقعة: ٤١ ـ ٥٥.

يسحون عرقاً.. ها هم الآن ينزلون المكان الذي أعد لهم سلفاً، والذي توحي كل كلمة من كلماته البارعة المصورة بجو الحر والاختناق: ﴿فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾.. ويأكلون كما تأكل الأنعام، لأنهم في حياتهم الدنيا ما كانوا ليغايروا الأنعام في تهافتهم على الطعام والشراب. ولكنهم إذا كانوا هناك (يلتهمون) أطيب ما تمنحه الأرض، فإنهم هنا يملؤون بطونهم بأسوأ ما تطلعه الجحيم ﴿شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ و(شَرَابُ الْحَمِيمِ).

وتختم هذه الآيات المروعة حديثها عن مصير هؤلاء وهي تشير بكلتا يديها: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾[(١)].

وهذا لا يعني أبداً (تعليق) الجزاء على جريمة الترف إلى يوم الحساب، وتجميد الإرادة البشرية عن العمل لوقف الجريمة وإعادة حالة التوازن، وما جاء القرآن الكريم لينفخ روح القعود والكسل في نفوس الناس، ومن السذاجة البالغة أن يمر هذا في البال كمجرد خاطر، وهو الذي تنزلت آياته تباعاً لتؤكِّد مسؤولية الإنسان الكاملة عن كل (فعل) يمارسه هو أو تمارسه (الجماعة) التي ينتمي إليها ويندمج فيها وتشتبك مصائره بمصائرها... على العكس تماماً، إن القرآن لا يكتفي بعرض المسألة من جانب واحد، ويبين ما في تجربة (الترف) من قبح وكفر وظلم وإنكار... وما سيؤول إليه أصحابها من مصير يوازي بشاعة ممارستهم تلك، يوم الحساب، وإنما ينتقل إلى الجانب الآخر، ويندد بالجماعة التي لا (تتحرك) لوقف الجريمة عند حدها، وبالجماهير التي تنظر إلى قلة من طغاتها تمارس المنكر فلا ترفع يداً ولا تنطق بكلمة، وبالناس الذين يرون رأي العين الدمار الذي يقودهم صوب النهاية المحتومة، بسبب ما يمارس بين ظهرانيهم من فساد،

---

(١) الواقعة: ٥٦.

فلا يتجمعون للمجابهة والإصلاح قبل فوات الأوان. . . ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾[١].

وبلهجة السخرية يتحدث عن أولئك (الخاضعين)؛ الذين يرتضون موقف الذل والتبعية لطغاتهم ومترفيهم: ﴿وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا﴾[٢].

ويخطو القرآن الكريم خطوة أخرى في تحليله لمسألة الترف، لكي يبين لنا على مستوى حركة التاريخ، وقيام الدول والحضارات وسقوطها، المسؤولية الثنائية المشتركة التي يمارسها طرفا المسألة: المترفون والمعدمون، في السير بالجماعة أو الأمة أو الدولة أو الحضارة، أو القبيلة التي ترد دائماً كوحدة اجتماعية معينة، نحو الدمار. . . المترفون الذين يزدادون ترفاً وظلماً وطغياناً وفسوقاً، والمعدمون الذين يقف بعضهم (ساكناً) إزاء الجريمة، بينما يسعى بعضهم الآخر إلى الإسهام بالجرم وتعزيزه بتملقهم وتذللهم ومعاونتهم على الشر في شتى مساحاته النفسية والأخلاقية والاجتماعية. ولن يكون بعد ذلك إلا أن تتخذ الإرادة الالٰهية وفق سننها الثابتة التي لا تتغير ولا تتبدل طبقة المترفين أنفسهم، وهم في قمة السلطة وسيلة لإحلال الدمار بأمة أو جماعة فقدت كل مبررات وجودها واستمرارها: ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾[٣].

(١) هود: ١١٦ ـ ١١٧.
(٢) الأحزاب: ٦٧ ـ ٦٨.
(٣) الإسراء: ١٦ ـ ١٧.

ثم ما يلبث القرآن أن يبين أن (**عطاء الله**) مفتوح للجميع، وأنه ليس مقصوراً على فئة دون فئة، وليست الملكية أو عدمها حتمية مقفلة ينعم بها ناس ويحرم آخرون.

ثم إن المسألة المادية أو العطاء، ليس في نهاية الأمر المقياس الموضوعي الصارم لتقسيم الناس إلى درجات، إنما هو الإيمان الذي يناط به التفضيل الحقيقي، وتنال بواسطته الدرجات الحقيقية الكبيرة عند الله.. وتبقى الأرزاق والأموال، يبقى عطاء الله، متاح الأسباب للناس جميعاً، مؤمنين وغير مؤمنين: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا نُّمِدُّ هَـٰٓؤُلَآءِ وَهَـٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ وَلَلْـَٔاخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَـٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾[1].

وفي مكان آخر يعرض علينا القرآن صورة لمجموعتين من الناس تقف موقفاً متناقضاً إزاء (**عطاء الله**):

المجموعة الأولى: تقدر هذا العطاء المتقلب المتغير الذي لا يدوم، حق قدره، فتأخذ بدورها مراكز العطاء بالمقابل، وتمنح بعض أو جل ما وهبها الله إياه قبل أن يزول هو أو تزول هي، وتتخذ من هذا العطاء سلماً تسارع في الصعود على درجاته إلى الخير والحق والعدل.

والمجموعة الثانية: تتنكر لصاحب هذا العطاء، وتستأثر وتطغى، وتتخذه سلماً إلى مراكز السلطة والقوة والفجور، وحرمان الألوف ممن لا يجدون رزقهم في مواطن الظلم والإثراء والترف والطغيان.. لكن هذه الفئة المترفة ما تلبث أن تتلقى الصفعة عاجلاً أم آجلاً: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ

(١) الإسراء: ١٨ ـ ٢١.

أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَلَدَيْنَا كِتَٰبٌ يَنطِقُ بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَٰذَا وَلَهُمْ أَعْمَٰلٌ مِّن دُونِ ذَٰلِكَ هُمْ لَهَا عَٰمِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِٱلْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْـَٔرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْـَٔرُواْ ٱلْيَوْمَ ۖ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ ءَايَٰتِى تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِۦ سَٰمِرًا تَهْجُرُونَ﴾[(١)].

وتبقى سنة الله التي لا تتبدل ولا تتغير تعمل عملها في حركة التاريخ، وتتخذ من المترفين أداة تسوق بها القرى والدول والجماعات والأمم نحو مصائرها المفجعة: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّواْ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُواْ وَٱرْجِعُوٓاْ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُواْ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ﴾[(٢)].

❋ ❋ ❋

و(الغنى الفاحش) الذي يقترب من الترف بدرجة أو أخرى يتعرض هو الآخر لحملات القرآن الصارمة في أكثر من موضع ويتلقى ضرباتها في أكثر من زاوية. إن القرآن يحدثنا في إحدى آياته عن العلاقة المتبادلة بين الغنى والطغيان، وكيف أنه لا مفر من هذا المصير السيئ الذي يؤول إليه أصحاب الألوف والملايين... يحدثنا بلهجة الزجر والتعنيف ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾[(٣)].

وفي آية أخرى يندد بأصحاب الغنى والجاه، وكيف أن الله سيسوقهم بممارستهم الخاطئة الظالمة الأنانية الطاغية التي تنبثق بالضرورة عن الغنى

(١) المؤمنون: ٦٠ ـ ٦٧.
(٢) الأنبياء: ١١ ـ ١٤.
(٣) العلق: ٦ ـ ٧.

الفاحش، إلى الطريق المسدود حيث السقوط الذي لن تجدي أموال صاحبه وأكداسه في إنقاذه منه: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾[١].

وفي آية ثالثة ينقلنا نقلته السريعة المعهودة إلى يوم الحساب لنلتقي بأصحاب الملايين وذوي السلطان الذين كان الناس يومها يتضوّرون جوعاً وهم متخمون، فلم يتحركوا لإشباع جوعتهم. نلتقي بهم لكي نرى ما الذي حل بهم، وما هو الطعام الذي سيملؤون به بطونهم الفارهة هناك[٢]: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ۝٢٥ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ۝٢٦ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ ۝٢٧ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ۝٢٨ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ۝٢٩ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣٤ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾[٣].

وآية أخرى تحملنا إلى عصر الرسول ﷺ وهو يتلقّى عتاب الله سبحانه، إذ تصدى لأحد أغنياء مكة وطمع أن يجلبه إلى حظيرة الإيمان، وأعرض عن فقير أعمى هرع إليه لكي ينتمي إلى ندائه. ويبين له كيف أن (الذكرى) أجدى مع هؤلاء منها مع أولئك، في أغلب الأحيان: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝٦ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ﴾[٤].

وخامسة تجتاز بنا المسافات إلى أواخر العصر المدني، حيث النفير العام الذي أعلنه الرسول ﷺ لقتال الروم (عام ٩هـ) في المعركة المعروفة

---

(١) الليل: ٨ ـ ١١.
(٢) انظر: هامش ١ ص٣٢.
(٣) الحاقة: ٢٥ ـ ٣٧.
(٤) عبس: ١ ـ ٧.

بتبوك، فتلقي مسؤولية التخلف على (الأغنياء) الذين رفضوا أن يستجيبوا للنداء: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾[1].

وآية سادسة تعرض علينا بسخرية واستهجان إحدى مقولات اليهود المادية، أرباب الذهب والفضة، وهي مقولة مضحكة حقاً، لكن بريق الذهب ورنين الفضة يعميان ويصمان: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾[2].

وفي مواضع أخرى عديدة من كتاب الله تتدفق الآيات متحدِّثة هذه المرة عن أرباب المال، مترفين وأغنياء، فاضحة إياهم، منددة بهم، ملقية قوارعها على مواقفهم الرجعية المنفعية إزاء الدعوات الجديدة، صافعة صلفهم وغرورهم، ممزقة الأستار عن حماية المال والبنين التي يحتمون بها دائماً، ويتوهمون أنّها تخلصهم من عقاب الله، واضعة إياهم هذه الآيات وجهاً لوجه أمام مصائرهم، مبينة لهم أن إغداق المال عليهم ليس من مصلحتهم في معظم الأحيان:

﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٥٥﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾[3].

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ ٱلَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ﴿٢﴾ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ﴿٣﴾ كَلَّا ۖ لَيُنۢبَذَنَّ فِى ٱلْحُطَمَةِ﴾[4].

---

(١) التوبة: ٩٣.

(٢) آل عمران: ١٨١.

(٣) المؤمنون: ٥٥ ـ ٥٦.

(٤) الهمزة: ١ ـ ٤.

﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾[1].

﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَـٰفِرُونَ﴾[2].

ويدعو نوح في قلب المحنة: ﴿رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى وَٱتَّبَعُوا۟ مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُۥ وَوَلَدُهُۥٓ إِلَّا خَسَارًا﴾[3].

ويدعو موسى عليه السلام بعد قرون طويلة: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[4].

ولن تغني عنهم أكداسهم من المال، وأتباعهم من الأبناء والحواشي إذا دمدم عليهم في الدنيا أو جاء دورهم يوم الحساب:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ﴾[5].

﴿وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَـٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ۝٣٥ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَـٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾[6].

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ۝٧٧ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ

---

(١) المسد: ١ ـ ٣.
(٢) التوبة: ٥٥.
(٣) نوح: ٢١.
(٤) يونس: ٨٨.
(٥) آل عمران: ١٠.
(٦) سبأ: ٣٥ ـ ٣٧.

عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّاۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾[١].

﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدتُّ لَهُۥ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ لِءَايَٰتِنَا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأُرْهِقُهُۥ صَعُودًا﴾. . .[٢].

﴿كَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا فَٱسْتَمْتَعُوا۟ بِخَلَٰقِهِمْ فَٱسْتَمْتَعْتُم بِخَلَٰقِكُمْ كَمَا ٱسْتَمْتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُم بِخَلَٰقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَٱلَّذِى خَاضُوٓا۟ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[٣].

هنالك الحوار الشيق الذي ورد في سورة الكهف[٤] بين صاحب المزارع الواسعة، وبين صديق له لا يكاد يملك شيئاً، ولقد انتهى الأمر بأولهما إلى البوار. . . فليس الغنى والثروة في منطق الإسلام بالشيء الأبدي الدائم كما يتصور كثير من (الرأسماليين)، ولا بالحتمية التي تفرضها (ظروف الإنتاج) كما يتصور كثير من (الماركسيين)؛ إنما هي مسألة وقتية معرضة للزوال في أية لحظة قد يساء فيها التصرف، ويمارس الطغيان إزاء جماهير الناس، والصلف والغرور إزاء إرادة الله السريعة الحاسمة التي لا تبقي ولا تذر. ومن منا لم يقرأ كذلك قصة (قارون) اليهودي المثري الذي كاد الذهب يخرج من أنفه وأذنيه!!:

﴿إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾

(١) مريم: ٧٧ ـ ٨٠.
(٢) المدثر: ١١ ـ ١٧.
(٣) التوبة: ٦٩.
(٤) انظر: السورة المذكورة، الآيات ٣٢ ـ ٤٤.

وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَـٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَـٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّـٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ﴾[١].

وسوء التصرف هذا، والطغيان إزاء (حقوق) الفقراء والمعدمين، هو الذي قاد الإخوة الثلاثة، أصحاب المزرعة الذين سموا ـ لاتساعها وامتدادها واكتظاظها ـ بأصحاب الجنة!! إلى البوار: ﴿إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَـٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ﴾[٢].

لكن إرادة الله سبقتهم فحصدتها قبل أن تحصدها الأثرة والجشع والطغيان!

وبينما تنصب الأوصاف القاسية السيئة على الفقراء المعدمين في المجتمعات التي يسودها الترف والطغيان، فيوسمون بالأوباش والأراذل والسوقة والأدنياء والمتطفلين... إلى آخره، ينعكس الموقف في القرآن الكريم، حيث توجه أقسى الكلمات إلى (أصحاب المال) المارقين، ويرمون بأقسى النعوت. ها هي إحدى الآيات تتحدث عن (أحدهم) مخاطبة

(١) القصص: ٧٦ ـ ٨١.
(٢) القلم: ١٧ ـ ٢٤.

الرسول ﷺ: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءِۭ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّۭ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾(١).

ولا نجد في القرآن، في مقابل هذا، أي نعت أو صفة قاسية تلحق بالفقراء والمعدمين، وكل ما ورد عنهم إنما جاء على لسان الكفار والمترفين أنفسهم من تسمية هؤلاء بأراذل القوم، وأنهم طليعة من يتبع الأنبياء وهم يدعون إلى الإيمان: ﴿قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلْأَرْذَلُونَ﴾(٢). ﴿وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ﴾(٣) وهذا يؤكد ما ذهبنا إليه.

وكان أرباب المال هؤلاء كانوا يدركون ما وراء الدعوات الجديدة التي يناديهم الأنبياء (عليهم السلام) للانتماء إليها، من تغيير في العلاقات الاجتماعية، وأسلوب جديد في التعامل مع (المال)، فكانوا يطرحون دوماً سؤالهم الاستنكاري هذا: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟﴾؟!(٤).

ونجيء أخيراً إلى الآية التي يحسم القرآن فيها الموقف إزاء المترفين والأغنياء وأرباب المال الذين يقفون بمواجهة (العدل) الذي جاءت الأديان لتحققه في هذا العالم... الآية التي سنعود إليها مرة أخرى والتي تقودنا إلى أكثر من أفق ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ

(١) القلم: ١٠ ـ ١٦.
(٢) الشعراء: ١١١.
(٣) هود: ٢٧.
(٤) هود: ٨٧.

عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾(١).

❀ ❀ ❀

وفي مقابل هذه الحملة الشاملة الحاسمة الرهيبة على ظاهرتي (الترف) و(الغنى الفاحش) في التجربة الاجتماعية، ما الذي يقدِّمه القرآن الكريم عن الفقر والفقراء والمساكين والمعدمين؟ هل هي دعوة للتبرع لهم والإحسان إليهم فحسب؟ فأين إذاً السلطة الإسلامية؟ وهل يمنع هذا الأسلوب (الأدبي)، دونما ضمانات تشريعية، ظهور وتضخم طبقة المترفين وتحول المال إلى دولة بين الأغنياء؟ ما الذي دفع القرآن الكريم إلى أن يعرض في عشرات المواضع مسألة (الإنفاق) على الفقراء، و(الحض) على إطعامهم، بكل ما يتضمنه فعل (الحض) من قوة وفاعلية لتحقيق هذا الهدف، وهو إشباع الجائعين وسد حاجاتهم الأساسية؟ ومن أولى من السلطة المشرعة والمنفذة، بالتخطيط لهذا المطلب الحيوي الخطير وتنفيذه في عالم الواقع، بما تمتلكه من قوة وفاعلية؟

صحيح أن (الإنفاق) الفردي، و(الصدقة) الاختيارية، و(التكافل) الاجتماعي، وغيرها من فاعليات العطاء التي يمارسها المسلم إزاء إخوانه تمثِّل جزءاً أساسياً من برنامج العدل الاجتماعي في الإسلام، وتغطي مساحة واسعة من نداءات القرآن في هذا المجال، وتلعب دوراً كبيراً في إحداث التوازن والانسجام والتعاون والترابط بين أفراد المجتمع المسلم وفئاته، وتجتث أدران الحقد والكراهية والشر لكي تزرع بدلاً منها علائق التكافل والمحبة والخير... لا سيما في الفترات التي تغيب فيها السلطة، فيتعرض

(١) التوبة: ٣٤ ـ ٣٥.

الفقراء والمعدمون للموت جوعاً، فتمتد إليهم اليد التي لا (تتبرع) و(تمن)، ولكن تعطي وتواسي وتندمج وتتعاون لكي تنقذهم من هذا المصير المفجع.

أي منا لم يمارس بنفسه، أو يشاهد إخوانه ورفاقه المؤمنين، يحصون أموالهم سنة بسنة لكي يقتطعوا منها حق (السائل) و(المحروم)، ويقدموها وزيادة دونما جلبة ولا ضوضاء، في عصر طرحت فيه شعارات ومزايدات ما زادت الفقراء والمعدمين إلا جوعاً ونصباً؟!

ومع ذلك فلا يعدو أن يكون هذا (العطاء)، على أهميته، مساحة محدودة فحسب من المساحات الشاسعة لبرنامج العدل الاجتماعي الذي رسم القرآن والسنة خطوطه العريضة، ونفذ الرسول ﷺ والراشدون (رضي الله عنهم) مخططاته الفذة، وبنى الفقهاء والمجتهدون على هذا وذاك مقولاتهم ونظرياتهم العجيبة المتفردة.

وفي أكثر من ثلاثين موضعاً من القرآن الكريم ترد الدعوة لإطعام الفقراء والمساكين وسد حاجاتهم الأساسية، وفي أكثر من أربعين موضعاً يرد التأكيد على فريضة الزكاة والصدقات، وتقييم دافعيها والتنديد بمانعيها، وفي أكثر من سبعين موضعاً يرد ذكر الإنفاق وتسلط عليه الأضواء من كافة زواياه، وفي أكثر من موضع يجيء التأكيد على أن هذا العطاء ليس تبرعاً ولا منّاً، ولكنه (حق) السائلين والمحرومين: ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾[1].

﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾[2].

﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾[3].

---

(١) الإسراء: ٢٦.
(٢) المعارج: ٢٤ ـ ٢٥.
(٣) الذاريات: ١٩.

﴿كُلُوا مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾[(١)].

وفي آيات أخرى يرد الحضُّ على إشباع الجائعين وسد حاجاتهم الأساسية كجزء أصيل من متطلبات الإيمان، كممارسة الصلاة سواء بسواء، وإن التوقف عن هذا (الحضّ) يخرج أصحابه من حظيرة الدين، ويدمغهم بالكذب: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾[(٢)].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣٤ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ۝٣٥ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ۝٣٦ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ﴾[(٣)].

﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ۝١٧ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾[(٤)].

ولن يكون (الحضُّ)، ما دام قد اقترن بالإيمان، وأصبح وقفه وقفاً لحركة الدين نفسه، لن يكون بكلمات متثائبة تقال، أو بيد تدفع بقايا الطعام إلى المساكين الذين يقفون وراء الأبواب خائفين متوسِّلين. إنما (بالفعل) الدائم والحركة المستمرة، وبالثورة إذا اقتضى الأمر لتحقيق هذا المطلب الأساسي... تماماً كما أن الصلاة فعل دائم وحركة مستمرة، وأنها بمجرد تحولها إلى الظل وإلى أن تغدو ممارسة جانبية، تدمغ صاحبها بالنفاق...

وهذا هو الذي دفع أبا بكر الصديق (رضي الله عنه) إلى أن يشهر السيف بوجه مانعي الزكاة ويعلن (والله لأقاتلنَّ مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ الصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ).

---

(١) الأنعام، بعض الآية ١٤١.
(٢) الماعون: ١ ـ ٧.
(٣) الحاقة: ٣٣ ـ ٣٧.
(٤) الفجر: ١٧ ـ ١٨.

ولا يتصورنَّ أحدٌ أن كثرة ورود الفقراء والمساكين وأبناء السبيل في القرآن الكريم، يجيء بمثابة تأكيد لأبدية ظاهرة (الفقر والحرمان) التي هي كما هو معروف اجتماعياً مسألة (نسبية)، لأن كثرة ورود الكفر والشرك، واللات وهبل والعزى، ووأد البنات، وأكل مال اليتيم، وممارسة الربا أضعافاً مضاعفة، وشرب الخمر، ولعب الميسر، وعبادة الناس، لا تحمل أية دلالة على أبديتها!! ثم إن القرآن الكريم لا يمكن أن يناقض نفسه فيدعو إلى تأبيد ظاهرة يشن هو نفسه الحملة عليها، ويصل بها في إحدى آياته إلى أن يربطها بالشيطان وبما يأمر به ويدعو إليه من الفحشاء: ﴿يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾[(١)].

۞ ۞ ۞

وثمة آيات أخرى تصل بنا إلى آفاق أبعد في مسألة التوازن الاجتماعي.. الآية التي تطلب من المسلمين، دولة وجماعة، أن (يتحركوا) مقاتلين مجاهدين لإنقاذ المستضعفين في الأرض من أيدي ظالميهم وجلاديهم، وتعطي الإشارة إلى أن (السيف) هو الحكم الأخير عندما تعجز كل الأساليب الأخرى عن وقف الظلم وتخليص البائسين... وأن الجهاد تلك الثورة المسلحة هي الحركة التي تنقل المقاتل المسلم إلى كل ميدان يمارس فيه الظلم ضد الإنسان، أيّاً كان شكل هذا الظلم وأيّاً كانت دوافعه: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾[(٢)].

---

(١) البقرة: ٢٦٨.

(٢) النساء: ٧٥.

وهذه الآية التي يطرحها القرآن ليتحرك المسلمون على ضوئها على المستوى الجماعي، تقابلها آية أخرى تدعوهم إلى أن يتحركوا على المستوى الفردي كذلك، وأن يقتحموا (العقبة)، هكذا، بكل ما يتضمنه (فعل) الاقتحام من قوة وعنف وإرادة لا بدَّ منها جميعاً لاجتياز الحاجز: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ﴾(١) . . . تحرير المستعبدين، وإطعام الجائعين، ذلك هو الهدف الذي يقتحم المؤمن من أجله الحواجز بقوة وعنف وحزم وإرادة!!

والآية التي تطرح نفسها كسؤال خطير أمام الرسول ﷺ وأمام أي (مشرع) مسلم يجيء بعد الرسول ﷺ: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ﴾، ويجيء الجواب الدائم غير الموقوت، بيِّناً صريحاً: ﴿قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾(٢)!!

والعفو هنا هو كل ما زاد عن الحاجة. . . وسنتذكر هذا المبدأ الخطير في التسوية الاجتماعية عندما نستمع فيما بعد إلى إحدى كلمات الرسول ﷺ، ولا بأس أن نوردها هنا، قال ﷺ: «من كان معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له. . .». ويقول شهود العيان: (إن الرسول ﷺ ذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل)!!

وهنالك الآية التي (تأمر) المسلمين: دولة ومشرّعاً وجماعة، ألا يسمحوا لأموالهم التي لكل فئة منهم حق معلوم فيها، والتي جعلها الله لهم سبباً من أسباب البقاء والنماء، أن تذهب إلى (السفهاء)، بهذا التعبير الصريح في تنديده: ﴿وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾(٣).

---

(١) البلد: ١٢ ـ ١٥.
(٢) البقرة: ٢١٩.
(٣) النساء: ٥.

والآيات التي تقطع الطريق على أية محاولة لطمس حقوق الناس في أموالهم لكي يزداد أصحاب السلطة والواجدون غنى، والفقراء والمعدمون فقراً، وتسم هذه المحاولة التي يمكن أن تتمَّ بألف أسلوب بالإثم والعدوان والظلم والإجرام، أكثر من ذلك تسمها بقتل النفس. وليس كفقدان العدل الاجتماعي معولاً ينزل على بنية المجتمعات فيفتتها ويدمرها ويمحوها:

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(١).

﴿وَءَاتُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾(٢).

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾(٣).

والآية التي تصبُّ حمماً من نار على طبقة (رجال الدين) من (الأحبار والرهبان) الذين اشتروا بعقيدتهم ثمناً قليلاً، وراحوا يدجلون على الناس باسم الدين ليأكلوا أموالهم ويضخموا بها حجم كنوزهم من الذهب والفضة. وكأن القرآن الكريم يفتح أعين المسلمين جيداً، ويستفزُّ وعيهم الدائم كي لا يتيحوا لظاهرة هدامة كهذه أن تبرز في مجتمعهم وبين ظهرانيهم، مهما كانت على درجة من الضآلة والخفاء، ويندِّد بكل من تحدثه نفسه بممارسة الأسلوب الذي مارسه الأحبار والرهبان طويلاً.

---

(١) البقرة: ١٨٨.
(٢) النساء: ٢.
(٣) النساء: ٢٩ ـ ٣٠.

وهذا وغيره من الأسباب يفسِّر لنا انعدام ظهور المرتزقة بالدين في تاريخنا، وظهور نقيض هذا تماماً، رجال الفكر الإسلامي وهم أشد الناس فقراً وتواضعاً واندماجاً في حياة الناس العاديين، ورفضاً لمواقع السلطة وإنكاراً لإغراء الذهب والفضة. ليس هذا فحسب، بل إن القرآن يوجِّه تحذيره الرهيب إلى المسلمين أنفسهم ألا يكنزوا الذهب والفضة، وأن ينفقوها في سبيل الله، وأنه بدون هذا وذاك فسوف تنقلب عليهم وبالاً يوم الحساب... وأي مترف أو غني تستحيل حياته إلى تكديس للمال، والناس يتضورون جوعاً، دون أن يتحرَّك بأمواله لوقف ظاهرة الجوع والحرمان، فإنَّ له أن يتصوَّر أن هذا الخطاب موجه إليه، وأنه غريب عن المجتمع الإسلامي الذي ينتمي إليه، بل إنه مارق عن قيمه وأهدافه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[1]. ﴿وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ ٱلْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾[2].

وفي آيات أخرى من سورة الفجر يتكرر هذا التنديد بجمع المال وأكل التراث، ويرتبط جدلياً بعدم إكرام اليتامى و(الحض) على إطعام الفقراء، مبتدئاً بكلمة الزجر القرآنية العنيفة: كلا!! ﴿كَلَّا ۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ ٱلْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكْلًا لَّمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾[3].

---

(١) التوبة: ٣٤ ـ ٣٥.

(٢) المائدة: ٦٢ ـ ٦٣.

(٣) الفجر: ١٧ ـ ٢٠.

ونحن لا نستطيع إلا أن نلحظ السمة الجماعية المشتركة في فعل (تحاضّون)، والمفهوم الحركي الكامن في صيغته المبالغة.

والآيات الكثيرة التي تأمر بربط (الإشباع) بـ (الاعتدال) والتقوى والعمل الإيجابي الصالح، وتنهى عن الإسراف والطغيان والفساد في الأرض واتباع خطوات الشيطان، تعمق في أذهان المسلم العادي والمشرع، وتحذرهما في الوقت نفسه، من حتمية هذه العلاقة الجدلية المتقابلة بين عدم تنظيم الإشباع، وبين كل ما يتمخّض عنه من ظلم (اجتماعي) يتمثل بالإسراف والطغيان والإفساد في الأرض.

وليس ثمة مجتمع تتحكم فيه قلة من الذين يملكون بكثرة من الذين لا يملكون، وتتخم فيه بطون معدودة وتتضوّر الملايين، يخلو من سمات الإسراف والطغيان، والإفساد في الارض، ذلك (الإفساد) الذي يتلبس وسط هذا التناقض الاجتماعي ألف لبوس، ويتخذ وقد اختفى التوازن ألف وسيلة لتدمير المجتمع، وعرقلة الحركة الحضارية، ووضع العوائق في طريقها:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾(١).

﴿كُلُواْ وَٱشْرَبُواْ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾(٢).

﴿كُلُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾(٣).

﴿فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾(٤).

---

(١) البقرة: ١٦٨.
(٢) البقرة: ٦٠.
(٣) الأنعام: ١٤٢.
(٤) الأنفال: ٦٩.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًا﴾(١).

﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾(٢).

والآية التي تبيِّن للناس جميعاً أن الأرض قد (ذللت) لهم بإرادة الله سبحانه، وتدعوهم إلى أن (يتحرّكوا) في أمدائها و(يأكلوا) من رزقها... ولا معذرة بعدها لجائع قاعد لا يجهد، ومسحوق لا يتحرك: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ﴾(٣).

والآية التي تقرن مأساة الجوع بكارثة الخوف وتبين لهم كم هي عظيمة المنة التي يمنُّها الله على الناس عندما ييسر لهم سبل الشبع والأمن... أفلا يعبدوه؟!: ﴿فَلۡيَعۡبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلۡبَيۡتِ ۝٣ ٱلَّذِيٓ أَطۡعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنۡ خَوۡفِۭ﴾(٤).

والآيات التي تأمر المسلمين بأن يتجاوزوا أخطاءهم ويكفروا عنها باعتبارها أعمالاً سالبة وذلك بتقديم ما يقابلها ويعوض عنها من (عطاء) باعتباره عملاً إيجابياً يمنح المجتمع ما خسره بممارسة الأخطاء. وأي فعل أولى بهذا العطاء من (إطعام) الجائعين وتحرير المستعبدين؟!:

﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلۡأَيۡمَٰنَۖ فَكَفَّٰرَتُهُۥٓ إِطۡعَامُ عَشَرَةِ مَسَٰكِينَ مِنۡ أَوۡسَطِ مَا تُطۡعِمُونَ أَهۡلِيكُمۡ أَوۡ كِسۡوَتُهُمۡ أَوۡ تَحۡرِيرُ رَقَبَةٖۖ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٖۚ﴾...(٥).

---

(١) المؤمنون: ٥١.
(٢) طه: ٨١.
(٣) الملك: ١٥.
(٤) قريش: ٤.
(٥) المائدة: ٨٩.

﴿أَوْ كَفَّـٰرَةٌ طَعَامُ مَسَـٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا﴾[١].

والآية التي تبين أن طبيعة الحياة الدنيا وفلسفتها (العملية) تقوم على (التفاضل) بين الناس في الرزق، وأن حكمة الله سبحانه هي التي قادت إلى هذا؛ انسجاماً مع طاقات الناس وقدراتهم واهتماماتهم وحرصهم، ومدى تحملهم للمسؤولية، ومقدار يقظة ضميرهم، وتمشياً مع متطلبات التطور والتنوع والتغاير في مسيرة الحضارات البشرية في كل زمان ومكان، ورفضاً للمنطق المثالي الذي يتخيل الناس وقد تساووا في أرزاقهم (مطلق) التساوي، ذلك المنطق اللاواقعي الذي قدمت لنا التجربة الشيوعية في روسيا ارتطامه الصريح في ميدان التنفيذ، وفي مدى العلاقات الفعلية في المجتمع. إلّا أن آية كهذه ـ وهي لبنة من لبنات كتاب الله المعجز ـ لا تقف عند حد تسليط الضوء على الجانب الواقعي من الصورة الاجتماعية، فهي في شقِّها القريب الثاني سرعان ما تبين أن المال، الذي هو في أساسه ملك للناس جميعاً، يلغي أي تصور قد يدور في أذهان الذين يملكون كثيراً من أنهم وحدهم أصحاب الحق في هذا المال، لأن الطرفين فيه سواء، هكذا بهذه الصراحة القرآنية المعهودة، وإن أي غبش قد يعتري هذه الحقيقة إنما هو جحود بنعمة الله:

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[٢].

ويعود القرآن الكريم ليطرح مرة أخرى، وهو يتكلم عن تهيئة الأرض لاستقبال الحياة البشرية في فجر التاريخ الجيولوجي البعيد، مسألة التساوي بين الناس في (القوت) الذي منحه الله لهم جميعاً: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَـٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾[٣].

(١) المائدة: ٩٥.
(٢) النحل: ٧١.
(٣) فصلت: ١٠.

ليس هذا فحسب، بل إن القرآن الكريم ينعى على الكفار تصورهم الساذج أن الله سبحانه ما دام قد كتب (الجوع) على طائفة من الناس؛ فإنه ليس بمقدور أحد من خلقه أن يطعمها!! بهذه السذاجة التي كثيراً ما دارت في أذهان القانعين والزاهدين، والتي تمنح في المقابل مبرراً مضحكاً، ولكن ذو فوائد جمة للمالكين الذين لا يبذلون أي جهد في إنقاذ الذين لا يملكون، فما دام الله هو الذي أجاعهم؛ فليس بمقدور أحد من خلقه أن يشبعهم:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾[1].

وهذا ينقلنا إلى مسألة ذات أهمية بالغة في قضية (العدل الاجتماعي) إن لم تكن محورها الأساسي وعمودها الفقري، تلك هي قضية إشباع حاجة الإنسان الأساسية إلى (الطعام). ونحن نستطيع أن نميز بين المذاهب التي أعارت هذا الجانب الحيوي اهتماماً ما بدرجة أو أخرى، وتلك التي لم تكترث له البتة، وظلت معلقة في سمواتها وأخيلتها ومثاليتها، بمجرد أن نلقي نظرة سريعة على عدد المرات التي وردت فيها المفردات ذات العلاقة المباشرة أو غير المباشرة بالموضوع؛ من أكل ورزق وطعام وشراب، والمناخ الذي وردت فيه... وليس لباحث جاد يقرأ كتب عدد من الفلاسفة والمفكرين كجمهورية أفلاطون، ويوتوبيا توماس مور، ومدينة أوغسطين المقدسة، ومدينة الفارابي الفاضلة، ولا يرى فيها إلا اهتماماً عابراً بمسألة الأكل والطعام والرزق والشراب، ثم لا يحكم عليها بأنها لا تولي اهتماماً مصيرياً حاسماً لإشباع إحدى أهم حاجات الإنسان الأساسية. وليس لباحث جاد كذلك أن يقرأ كتاب الله ويلتقي بعشرات، بل مئات المواضع، التي وردت فيها مفردات هذه المسألة، إلا أن يستنتج أن الإسلام جاء لكي يضع

(١) يسٓ: ٤٧.

هذه المسألة الحيوية في مقدمة برامجه التغييرية، ويوليها اهتماماً مصيرياً حاسماً!!.

في حوالي مئة موضع في القرآن ترد كلمة (الأكل) بتصريفاتها المختلفة، وفي حوالي خمسين موضعاً ترد كلمة (طعام) بتصريفاتها المختلفة، وفي حوالي ثلاثين موضعاً ترد كلمة (شراب) بتصريفاتها المختلفة، وفي حوالي مئة وعشرين موضعاً ترد كلمة (الرزق) بتصريفاتها المختلفة. وليس هذا فحسب، بل إن (المناخ) الذي كانت هذه الكلمات ترد فيه في كثير من الأحيان، والأرضية التي تحركت عليها عبر الآيات والسور، يبين لنا بوضوح كامل ووفق أساليب القرآن اللغوية والبلاغية، مدى الأهمية المولاة لهذه المسألة الحيوية التي هي من أشد المسائل أهمية في تاريخ الإنسان. هذا في الوقت الذي نجد فيه (مناخات) و(أرضيات) كلمات كالطعام والشراب والاكل، في عدد من المذاهب والأديان الأخرى المحرفة، تعج بروائح الاحتقار والرفض والدنس والاشمئزاز. ولكن أنى لهؤلاء أن يهربوا من صيحات أجوافهم الجائعة التي لو ألقمت حصى وأحجاراً لطحنتها؟!.

ومن ثم كان التناقص المحزن الذي عرفه التاريخ مراراً: أن يأكل هؤلاء ويشبعوا ويتجاوزوا الشبع إلى التخمة، ويتجاوزوا التخمة إلى التكديس، بينما أتباعهم وعبدتهم يتضوَّرون جوعاً... وهذه الفرضية المحزنة بالنسبة لأصحاب المذاهب (المتطهرة) والأديان الروحية (المحرفة) وبعض الحركات الصوفية المتطرفة والتي استهجنت الحديث عن الطعام والشراب، انعكست تماماً في القرنين الأخيرين، وبشكل أشد إيلاماً، في المذاهب (واليساريات) التي رأت في المعدة بدء حياة بني آدم ومنتهاها، ورفعت مسألة الطعام والشراب إلى مصافّ القداسة، فإذا بسدنة هذا الحرم المقدس من قادة الدعوات اليسارية، يأكلون فيشبعون فيتخمون فيكدسون، وإذا بالجماهير الساحقة من الناس تكدح وتتصبب عرقاً، وتموت مسغبة وجوعاً، لكي تقدم لسدنة (الحرم المقدس) الجدد، الأضحيات والقرابين!!.

المهم أن الإسلام، هذا الدين (الوسط)، أولى هذه الحاجة الحيوية، كما أولى الحاجة الجنسية تماماً، اهتمامه الجاد الكبير، وهذا أمر طبيعي تماماً، لأن الله سبحانه الذي خلق الإنسان وصاغ وظائفه العضوية، وقدر حاجاته الأساسية، أدرى بمتطلَّبات هذه الحاجات، وضرورة تلبية نداءاتها الأبدية المستمرة، وأعلم بطبائع الإنسان التي إن لم تنسق وتنظم وترتب ضماناتها فإنها سوف تدمر نفسها بالأثرة، بينما يموت الآخرون جوعاً، أو تقتلها بالحجب والكبت والحرمان، فتشذ عن منطق التكوين البيولوجي للإنسان.

❁ ❁ ❁

واهتمام القرآن الكريم بالمسألة التي تحت أيدينا يتبدّى أول ما يتبدّى، كما قلنا، في هذا العدد الكبير من المواضع التي وردت فيها مفردات المسألة وعباراتها، وفي المناخ والأرضية التي تحركت عليها هذه العبارات والمفردات، وتنفست!! وإليكم بعد ذلك نماذج محدودة فحسب من هذا العرض القرآني لمسألة الأكل والطعام والشراب:

الأكل:

﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَٰهُمْ جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِم مِّن رَّبِّهِمْ لَأَكَلُوا۟ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِم ۚ مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَآءَ مَا يَعْمَلُونَ﴾[1].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَسُوقُ ٱلْمَآءَ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِۦ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَٰمُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ ۖ أَفَلَا يُبْصِرُونَ﴾[2].

(١) المائدة: ٦٥ ـ ٦٦.
(٢) السجدة: ٢٧.

﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا۟ مِنۢ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَٰنِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَٰمِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَٰلِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوْ صَدِيقِكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا۟ جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ۚ﴾[(١)].

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[(٢)].

﴿لَّكُمْ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[(٣)].

﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[(٤)].

﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ﴾[(٥)].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَنْعَٰمَ لِتَرْكَبُوا۟ مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾[(٦)].

﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾[(٧)].

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾[(٨)].

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾[(٩)].

---

(١) النور: ٦١.
(٢) النحل: ٥.
(٣) المؤمنون: ١٩.
(٤) المؤمنون: ٢١.
(٥) فاطر: ١٢.
(٦) غافر: ٧٩.
(٧) يسٓ: ٣٥.
(٨) يسٓ: ٣٣.
(٩) يسٓ: ٧١ ـ ٧٣.

﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا﴾[١].

﴿وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ﴾[٢].

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ﴾[٣].

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾[٤].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[٥].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾[٦].

﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾...[٧].

﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾[٨].

﴿فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ﴾[٩].

---

(١) البقرة: ٣٥.
(٢) البقرة: ٥٧.
(٣) البقرة: ٥٨.
(٤) البقرة: ٦٠.
(٥) البقرة: ١٦٨.
(٦) البقرة: ١٧٢.
(٧) الأعراف: ٣١ ـ ٣٢.
(٨) طه: ٥٤.
(٩) الحج: ٢٨.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾[١] .

الطعام:

﴿لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ . . .[٢] .

﴿قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ . . .﴾[٣] .

﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ﴾ . . .[٤] .

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[٥] .

﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾[٦] .

﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾[٧] .

﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ﴾[٨] .

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾[٩] .

---

(١) الملك: ١٥ .
(٢) المائدة: ٩٣ .
(٣) الأنعام: ١٤٥ .
(٤) الأنعام: ١٣٨ .
(٥) يٓس: ٤٧ .
(٦) الإنسان: ٨ ـ ٩ .
(٧) قريش: ٤ .
(٨) الشعراء: ٧٩.
(٩) آل عمران: ٩٣ .

﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾(١).

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ﴾(٢).

﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ﴾(٣).

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَـٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَـٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَـٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَـٰمِكُمْ﴾(٤).

الشراب:

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾(٥).

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ﴾(٦).

﴿فَكُلِى وَٱشْرَبِى وَقَرِّى عَيْنًا﴾(٧).

﴿نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّـٰرِبِينَ﴾(٨).

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾(٩).

---

(١) المائدة: ٥.
(٢) الفرقان: ٢٠.
(٣) المائدة: ٩٦.
(٤) عبس: ٢٤ ـ ٣٢.
(٥) الواقعة: ٦٨ ـ ٧٠.
(٦) البقرة: ١٨٧.
(٧) مريم: ٢٦.
(٨) النحل: ٦٦.
(٩) النحل: ١٠.

﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾(١).

﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾(٢).

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾(٣).

﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾(٤).

* * *

يتقدّم بنا القرآن الكريم خطوات واسعة أخرى في ميدان (العدل الاجتماعي)، واضعاً في كل خطوة يخطوها، وآية يطرحها، معلماً من معالم هذا الميدان ومبدأ من مبادئه الأساسية التي تقوم عليها جزئيات التنفيذ ويومياته المتغيرة المتحولة، إلا أنَّ القاعدة تبقى دوماً هي القاعدة... يتقدَّم بنا صوب حقيقة أخرى لا تقل عن سابقاتها إن لم تفقها على الإطلاق، تلك هي أن الناس مستخلفون في أرض الله، وأن أموالهم ليست في (ملكيتهم) ابتداءً، إنما هي (مال الله) استخلفهم فيه لينظر ماذا يصنعون به، وفي أي الوجوه يسخرون (قيمه) ويعتمدون (منفعته) بإرادتهم الخاصة وحريتهم التي منحهم الله إياها تمييزاً لهم عن كثير من خلائقه... ومعنى هذا أن بني آدم جميعاً يملكون حقهم المشروع في هذا المال، وأن (وكالته) أو (تفويضه الاجتماعي) الموقوت ليس أبديّاً لأية فئة من الناس لا تحسن شروط توظيفها عليه، ولا (تعدل) في تصريف قيمه ومنافعه:

(١) النحل: ٦٩.
(٢) صٓ: ٤٢.
(٣) فاطر: ١٢.
(٤) يسٓ: ٧٣.

﴿ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُواْ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾[١].

﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ﴾[٢].

والقرآن الكريم يربط هذا (الموقف) الاجتماعي بنظريته الشاملة عن دور الإنسان في الأرض، ذلك الدور الذي يقوم في أساسه على استخلافه في هذا العالم:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[٣].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ﴾[٤].

﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾[٥].

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ﴾[٦].

ومسألة استخلاف الناس في الأموال، ونفي ملكيتهم له ابتداء، تزداد وضوحاً وتأكيداً بمجرد أن نلقي نظرة سريعة على المواضع التي وردت فيها كلمة (رزق) في القرآن بتصريفاتها المختلفة، ففي جل تلك المواضع البالغة حوالي المئة والعشرين يرد فعل (الرزق) مرتبطاً بمصدره الحقيقي، ومالكه الأول والأخير: الله سبحانه، وفي معظمها ترد الدعوة الموجهة للإنسان بأن ينفق ويعطي من رزق الله هذا، وأن عليه أن يتذكر دوماً أن هذا المال ليس ماله وإنما هو مال الله!! وبدون هذا الإنفاق والعطاء فإنه سوف يقدم الإشارة على أنه ـ فرداً أم جماعة ـ غير مستحق هذا المال:

---

(١) الحديد: ٧.
(٢) النور: ٣٣.
(٣) البقرة: ٣٠. وانظر: كتاب (التفسير الإسلامي للتاريخ) للمؤلف، الطبعة الثانية، دار العلم للملايين ـ بيروت ـ ١٩٧٦م.
(٤) الأنعام: ١٦٥.
(٥) يونس: ١٤.
(٦) فاطر: ٣٩.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ﴾[١].

﴿أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ﴾[٢].

﴿وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ﴾[٣].

﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٤].

﴿قُل لِّعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾[٥].

﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾[٦].

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُم مِّنْ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾[٧].

﴿أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ﴾[٨].

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ﴾[٩].

﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾[١٠].

﴿لَهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ﴾[١١].

---

(١) يٰسٓ: ٤٧.
(٢) البقرة: ٢٥٤.
(٣) المنافقون: ١٠.
(٤) البقرة: ٣.
(٥) إبراهيم: ٣١.
(٦) الشورى: ٣٨.
(٧) الأنعام: ١٥١.
(٨) النمل: ٦٤.
(٩) الملك: ٢١.
(١٠) الشورى: ٢٧.
(١١) الشورى: ١٢.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾[١].

﴿وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾[٢].

﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾[٣].

﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾[٤].

وما كان لنا أن نغادر كتاب الله إلى سنة رسوله ﷺ قبل أن نقف قليلاً عند آيات (الحشر) الحاسمة في هذا المجال، الآيات التي تحمل دعوة الله الصريحة إلى رسوله والمؤمنين أن (ينظموا) مسألة (توزيع المال) بشكل لا يقود إلى حصره في يد القلة وحجبه عن الكثرة الساحقة. . . وهذا أمر طبيعي تماماً ما دام القرآن قد حدّثنا كما رأينا عن الصورة الكالحة القاتمة للمجتمع الذي تكون كلمته الأولى والأخيرة للمترفين:

﴿مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ كَىْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ ۚ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٥].

---

(١) العنكبوت: ١٧.

(٢) الذاريات: ٢٢.

(٣) صٓ: ٥٤.

(٤) العنكبوت: ٦٠.

(٥) الحشر: ٧ ـ ١٠.

إن كلمات الله سبحانه في هذه الآيات من سورة الحشر، وهي تأمر بتوزيع الفيء على كافة الفئات (المحتاجة) في المجتمع الإسلامي الوليد، تقدِّم برنامج (عدل اجتماعي) سار على هديه الرسول ﷺ وخلفاؤه الراشدون (رضي الله عنهم)، وإن عبارة ﴿كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ﴾ هي غاية ما يمكن أن يطرح في مجال كهذا أمام المشرِّع الإسلامي.




القسم الثالث

تعاليم في مواقف الرسول ﷺ


@Ahmedyassin90

تعاليم في مواقف الرسول ﷺ

طرح الرسول ﷺ قيم العدل الاجتماعي ومبادئه وخطوطه العريضة على مستويات ثلاثة:

في أولها: قدم لنا مبادئ ونظريات وقواعد يمكن أن يبني المشرع الإسلامي عليها ـ كما حدث فعلاً ـ عمارات فقهية شامخة في ميدان العدل الاجتماعي، مستمداً قدرته على العمل من روح هذه المبادئ والنظريات والقواعد، مهندساً اجتهاداته وفق مساراتها واتجاهاتها.

وفي ثانيها: نفذ الرسول ﷺ بعض التجارب، وأجرى عدداً من التغييرات والممارسات على المستوى الجماعي، فجاء هذا (التنفيذ) الواقعي امتداداً للمبادئ والنظريات المطروحة على لسانه ﷺ، وتأكيداً في الوقت نفسه على أن الإسلام ما جاء لكي يطرح أفكاراً خيالية، ومُثُلاً معلقة في سماء الأحلام، وإنما لكي (يغيِّر) شكل الواقع، و(يبدِّل) في أحجامه المتوارثة، ويحول علاقاته لصالح الإنسان، وأنه بواقعيته هذه قدير على أن يتحرك دوماً في عهد الرسول وصحابته وتابعيه والمنتمين إلى دعوته جيلاً بعد جيل، كما حدث فعلاً، من أجل إحداث هذا التغيير والتبديل والتحويل.

أما على المستوى الثالث: فقد نفذ الرسول ﷺ باعتباره القائد الأعلى للجماعة الإسلامية وأسوتها الحسنة على مر الأجيال؛ نفذ (أخلاقية) العدل الاجتماعي التي تنبعث من الأعماق وتؤول إلى ممارسة وسلوك وعمل، تتبدى ملامحها في كل جزئية من جزئيات الحياة اليومية، وكل منعطف من منعطفاتها، ابتداء بمسألة السكنى والملبس والطعام والشراب داخل بيته، وانتهاء بطبيعة علاقاته كنبي وقائد مع أبناء أمته، فأعطى الإشارة الحاسمة

لكل الّذين سيجيئون بعده، فتحملهم الأحداث أو الجماهير إلى مراكز السلطة، وأشعل الضوء الذي على هديه سار خلفاؤه الراشدون، حكام العالم، وهم يتضوَّرون جوعاً، ويناموں على الحصى، ويأكلون الخلَّ والزيت، ويلبسون قمصاناً مرقوعة لم يتجاوز أحدها يوماً أربعة دراهم أو خمسة. ولقد ظلَّ الضوء النبوي، وسيظل رغم انطفاء العصر الراشدي، مشعلاً لكي يبين لكل الواصلين إلى السلطة من المؤمنين الحقيقيين معالم الطريق. وليس انقلاب عمر بن عبد العزيز خليفة نصف العالم وتحوله الذاتي الأخلاقي العظيم، إثر تسلُّمه السلطة، سوى مثل من الأمثال.

على هذه المستويات الثلاثة المتداخلة، المترابطة كحلقة متماسكة لا تدري أولها من آخرها، طرح الرسول ﷺ قيم العدل الاجتماعي ومبادئه وخطوطه العريضة، وكان هذا يعني في التحليل السلبي من جهة أخرى أن افتقاد وتحطّم أي رأس من رؤوس هذا المثلث ذي الزوايا المتناظرة، سيعرض التجربة لضربة قاصمة، وسيفكك أضلاع المثلث ويتيح للقوى المضادة (من انتهازيين ووصوليين وأنصاف مؤمنين وأرباب مال ومنافع، ومترفين ومنافقين وطواغيت)، كما حدث ويحدث بالنسبة لكثير من التجارب الاجتماعية، أن تتسلل أفواجاً أفواجاً لكي تقبع هناك. وماذا يبقى من المفهوم الإسلامي للعدل، وقد آل الأمر إلى أن يملأ هؤلاء مساحات المثلث ذي الأضلاع المفككة؟ ومن ثم كان لنا أن ندرك مدى خطورة هذا الارتباط العضوي، ليس في الإسلام فحسب، بل في كل المذاهب، بين نظرية تطرح، وتجربة تنفذ، وأخلاقية تحمي النظرية والتجربة من التحوير والاستغلال والتزوير، وتلتزم، بصرامة، أسلوباً في التعامل مع الذات ومع الآخرين وهي في قمة السلطة، ليس كذلك الذي تمارسه وهي في القاعدة!!.

وإذا لم تكن تجربة العدل الاجتماعي في الإسلام قد نفذت وبرزت بأطرافها جميعاً، في فترات طويلة من تاريخنا، وإذا كان بعض المتسلِّطين

قد جرفتهم الأحداث إلى مواقع السلطة دون أن يفعلوا شيئاً في هذا الميدان، بل دون أن يوقفوا التيار المضاد عن تدفقه وتضخمه، أكثر من هذا، راحوا هم أنفسهم والمحيطون بهم يعملون في الاتجاه الآخر المعاكس فيزدادون ترفاً وتخمة وطغياناً، بينما تزداد في الجهة المقابلة أزمة الجوع والفقر والمسغبة بين جماهير أمتهم. إذا ما حدث هذا وذاك فإنه ليس عيباً أو خللاً في نظام الإسلام ذاته وفي برامجه الاجتماعية، إنما هي الإرادة والوعي البشريان اللازمان دائماً لحماية المبادئ من التجميد والانحراف، أو التسلل والاستغلال.

وما أكثر المتسللين والمنفعيين والوصوليين والمنافقين الذين مارسوا السلطة في مستوياتها العليا، وأثروا وامتلكوا وأترفوا عبر التجارب الاشتراكية، وما أطول المدى الذي اجتازته مجتمعات الغرب الرأسمالية التي بلغ فيها التنافس حده الأقصى، فتحتّم على الديالكتيك أن يمارس دوره، ويدفع البروليتاريا إلى الثورة واستلام السلطة، دون أن يحدث ما يوحي بقرب اليوم الموعود!!.

ومرة أخرى: الوعي والإرادة البشرية المدعمة بالإيمان هما اللتان تصنعان الأحداث، وتصوغان حركة التاريخ، وتحميان المبادئ والتجارب من التجميد والتزوير والتزييف والاستغلال، ولا شيء وراء ذلك مما يقال إنه حتميات التاريخ!! ولنا بعد ذلك أن نعرض بإيجاز تام لكل من هذه المستويات الثلاثة التي طرحها ونفذها رسول الإسلام ﷺ، مقتطعين منها نماذج فحسب، إذ يصعب الحصر في بحث موجز كهذا، مركزين على المبادئ، متجاوزين التفاصيل والجزئيات.

أولاً: المبادئ والقواعد والنظريات:

يطرح الرسول ﷺ مبادئ متفاوتة الدرجات إزاء (المال) و(حق الجماعة)، ويسلِّط الضوء على المسألة الاجتماعية من زواياها وأطرافها كافة، لكي

لا تتبقى منها أية مساحة غارقة في العتمة، وهو في هذا كله إنما يساير القرآن جنباً إلى جنب، يؤكد آياته البينات، ويعززها ويوضحها. إنه ﷺ يتحدث عن العمل والأجر والأرض والزراعة، وعن طبيعة العلاقات المتينة العميقة التي تربط بين أفراد المجتمع المسلم الواحد وتجعلهم كالبنيان لا يسمحون لأي منهم يسلم أو يظلم... وعن المسؤولية الجماعية التي تحتم على كل فرد أن يعرف مواطن الحق والواجب وإلا عصفت بهم العواصف.

ويقف طويلاً عند الثروة، ويبين في أكثر من موضع أنها ليست هدفاً ولا يجب أن تكون كذلك، وإلا قادت عبيدها ومستخدميها إلى الدمار، وكيف أن الموقف الصائب في التعامل معها يضعها في موضعها المناسب من فاعليات الإنسان على الأرض، كوسيلة تحمله والجماعة معه إلى أبعد الآفاق.. وكيف أن حق الجماعة في المال يتدرج من (الزكاة)، حده الأدنى، صعداً صوب القمة التي تغدو فيها مشتركة في هذا المال الزائد عن حاجة صاحبه، وما وراء ذلك هو ما عبَّر عنه الرسول ﷺ بقوله: «ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهباً، أموت وعندي منه دينار، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا...»؛ وطوح بيديه يميناً وشمالاً وخلفاً. وسنرى في المقطع الأخير من هذا البحث كيف مات الرسول ﷺ وليس عنده دينار واحد!!.

يتحدَّث الرسول ﷺ عن (العمل) باعتباره الأساس الذي يوليه الإسلام الأهمية الكبرى، والذي تتمخَّض عنه ابتداء (القيمة) التي يتضمنها المال و(المنفعة) المترتبة عليه، ويجب أن نلاحظ هنا كيف أن القرآن الكريم يورد العمل بتصريفاته المختلفة وأبعاده الجزئية والشاملة، المادية والأخلاقية، الدنيوية والأخروية، فيما يزيد عن ثلاثمئة وخمسين موضعاً ويسعى ﷺ إلى أن يدرأ، بحضِّ أتباعه على العمل، ظواهر التبطل والكسل والتواكل والاستجداء التي تتناقص أساساً مع متطلَّبات العدل الاجتماعي، وصورة المجتمع الذي يسوده التوازن الفعال.

قال: «والذي نفسي بيده! لئن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يأتي رجلاً فيسأله، أعطاه أو منعه».

وقال: «ما أكل أحد طعاماً قط خير من أن يأكل من عمل يده».

وقال: «على كل مسلم صدقة. قالوا: يا نبي الله فمن لم يجد؟ قال: يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدّق. قالوا: فإن لم يجد؟ قال: يعين ذا الحاجة الملهوف. قالوا: فإن لم يجد؟ قال: فليعمل بالمعروف وليمسك عن الشر فإنها له صدقة».

المهم هو أن يعمل الإنسان المسلم، وأن يكون إيجابياً، فإذا عجز عن تفجير طاقاته في بعض مساحات النشاط البشري، فإن هناك مساحات أخرى غيرها.

ومن أجل تأكيد هذه الفكرة في العطاء الاجتماعي قال، فيما نقله لنا حكيم بن حزام: «سألت رسول الله فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: يا حكيم! إن هذا المال خضرة حلوة؛ فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى».

وقال: «ما من مسلم يغرس غرساً، أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلّا كان له به صدقة».

وقال: «العمل عبادة». و«طلب كسب الحلال فريضة». و«طلب الحلال جهاد». و«من أمسى كالّاً من عمل يده أمسى مغفوراً له يوم القيامة».

وقال: «إن أشرف الكسب كسب الرجل من يده».

وقبَّل يداً ورمت من كثرة العمل وقال: «هذه يد يحبها الله ورسوله».

وقال «إن الله يحبُّ العبد المؤمن المحترف».

ومرة أخرى يعود إلى إيجابية العمل في الحياة الإسلامية ويفضله على (سكون) العبادة فيقول: «لئن يمشي أحدكم مع أخيه في قضاء حاجته أفضل من أن يعتكف في مسجدي هذا شهرين».

ويبلغ من تقييمه للعمل وتقديره للعطاء، وإدراكه العميق للدور الذي يمارسه على المستوى الاجتماعي خاصة والحضاري عامة أن قال: «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها فله بذلك أجر».

ويؤكد رسول الله ﷺ وهو يتحدَّث عن العمل على (حق) الأجير والعامل، هذا الحق الصارم الذي يجب أن يُعطاه لحظة توقفه عن العمل جزاء وفاقاً على ما قدمت يداه، فيأمر أصحابه: «أعطوا الأجير حقّه قبل أن يجف عرقه».

ويصب غضبه الشديد، ويعرب عن خصومته القاطعة لكل من يستأجر أجيراً فيأكل حقه: «ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة: رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرّاً ثم أكل ثمنه، ورجل استأجر أجيراً فاستوفى منه فلم يعطه أجره».

ولم يترك رسول الله ﷺ مسألة من أهم مسائل العمل، تلك هي تكليف العامل أو الأجير بذل جهد أكبر من ذلك الذي تم الاتفاق عليه، أو قضاء ساعات أطول في العمل، أو إنجاز قطع أكثر من المتفق عليها، وضرورة ضمان هذه الزيادة في الجهد الذي تنبثق عنه قيمة أكبر لصاحب العمل.

كما أنه لم يترك مسألة العلاقات الإنسانية التي يجب أن تسود بين الطرفين: العامل وصاحب العمل، في أي نشاط اجتماعي، ويتقدم بها ﷺ صعداً حتى يضعها في مرحلة الأخوة الكاملة؛ حيث يأمر أصحابه حينذاك: عمالاً وأصحاب عمل، أن يأكلوا سويّاً ويلبسوا سويّاً.. يقول: «..

إخوانكم خولكم، جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده؛ فليطعمه مما يطعم، وليلبسه مما يلبس، ولاتكلِّفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم».

وليس ثمة نظام تعرض فيه مسألة (العمل) وفق هذا المثلث الصارم: منح حق العامل كاملاً في وقته المناسب، وزيادة هذا الحق بما يتناسب واتساع الجهد الذي يبذله العامل، ورفع العلاقة بين العامل وصاحب العمل إلى مستوى الأخوة والتعامل المشترك في الطعام واللباس.. ليس ثمة نظام كهذا يتاح فيه لو نفذت تعاليمه في عصر صناعي على سبيل المثال أن تنمو وتترعرع الأخلاقية الرأسمالية الجائرة والطبقية المقيتة.

ثم إن هذه التعاليم وغيرها كثير، تعد في الوقت نفسه سبباً في عدم وصول المجتمع الإسلامي إلى مرحلة الرأسمالية، بمفهومها الكامل، رغم ما قدمته له حضارته من معطيات في ميادين التكنولوجيا والعلوم التطبيقية، لأن أخلاقية المسلمين التي صنعها دينهم وصاغها رسوله ﷺ تقف حائلاً دون هذا المصير حتى لو لم تجئ (الحروب الصليبية) و(الغزو المغولي) لكي تدمر حيوية الحضارة الإسلامية وتنقل البندول إلى عالم الغرب.

وليس أدل على أهمية العمل في نظر الإسلام، وأنه وراء القيمة الحقيقية للإنتاج، من موقف القرآن والسنة الحاسم المعروف إزاء العمليات الربوية بكل أشكالها التي لا محلَّ لعرضها هنا.

ومن الأحاديث الشريفة التي وردت عن مسألة الأرض والزراعة وأنها لمن (يزرع) لا لمن (يملك)، وأن الذي يعمل في الأرض التي لا يملكها أحد، أحقّ بها، ونحن نجتزئ منها بهذه الأحاديث:

عن عائشة: أن النبي ﷺ قال: «من أعمر أرضاً ليست لأحد، فهو أحق بها».

وعن رافع بين خديج: أن النبي ﷺ نهى عن كراء المزارع.

وعن جابر بن عبد الله: أن رسول الله ﷺ نهى أن يؤخذ للأرض أجر أو حظ.

ويقول ﷺ: «عادي الأرض لله والرسول ثم لكم، فمن أحيا أرضاً ميتة فهي له، وليس لمحتجز حق بعد ثلاث سنين».

ويقول: «من كانت له أرض فليزرعها أو ليمنحها».

وكان رسول الله ﷺ قد أعطى بلالاً بن الحارث المزني جميع أرض العقيق، فلمَّا كان زمن عمر قال لبلال: إن رسول الله ﷺ لم يقطعك لتحتجزه عن الناس، إنما أقطعك لتعمل، فخذ منها ما قدرت على عمارته وردَّ الباقي.

ويبني المشرّع الإسلامي الشهير ابن حزم القرطبي (ت ٤٥٦هـ) على هذه الأحاديث في مسألة الأرض والمزارعة رأيه المعروف في المحلى: «ولا تجوز إجارة الأراضي أصلاً، لا للحرث فيها ولا للغرس فيها، ولا للبناء فيها لشيء من الأشياء أصلاً.. لا لمدة مسماة قصيرة ولا طويلة، ولا بغير مدة مسماة، لا بدنانير ودراهم، ولا بشيء أصلاً.. فما وقع فسخ أبداً. ولا يجوز في الأرض إلا الزراعة بجزء مسمى مما يخرج منها، أو المغارسة كذلك فقط. فإن كان فيها بناء قل أو كثر جاز استئجار ذلك البناء، وتكون الأرض تبعاً لذلك البناء، غير داخلة في الإجارة أصلاً»!

وكما كانت قواعد العمل الآنفة رهينة بعدم ظهور مجتمع رأسمالي على النمط الغربي، كانت هذه القواعد الخاصة بالنشاط الزراعي رهينة بعدم ظهور المجتمع الإقطاعي على النمط الغربي نفسه، لولا أن انحرف الناس في ميدان التطبيق، بدرجة أو بأخرى، عن قيم الإسلام وتعاليمه، وهذه

المسألة شيء والقول بأن الإسلام جاء لكي يعزز النمو الإقطاعي أو الرأسمالي في المجتمعات البرجوازية شيء آخر يتهافت بمجرد إلقاء نظرة سريعة على نظرية الإسلام نفسها.

ويتحدَّث الرسول ﷺ عن «الثروة» ويبين في أكثر من موضع كيف أنها ليست هدفاً ولا يجب أن تكون كذلك، وإلا قادت عبيدها ومستخدميها إلى الدمار، وكيف أن الموقف الصائب في التعامل معها يضعها في موضعها المناسب من فاعليات الإنسان على الأرض، كوسيلة تحمله، والجماعة معه، إلى أبعد الآفاق، ويحمل على الترف والمترفين الذين لا يعرفون حقوق غيرهم في الجماعة التي ينتمون إليها، والذين يأكلون كما تأكل الأنعام؛ يحدثنا عنهم بأسلوب ينضح بالسخرية والتنديد، ويذكرنا بمواقف القرآن منهم وصوره عنهم:

عن أبي سعيد الخدري: أنّ النبي ﷺ جلس ذات يوم على المنبر وجلسنا حوله، فقال: «إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا وزينتها.. وإن مما ينبت الربيع يقتل أو يلم إلا آكلة الخضراء؛ أكلت حتى إذا امتدت خاصرتاها استقبلت عين الشمس فثلطت وبالت ورتعت، وإن هذا المال خضرة حلوة، فنعم صاحب المسلم ما أعطى منه المسكين واليتيم وابن السبيل ـ أو كما قال النبي ﷺ ـ وإنه من يأخذه بغير حقه كالذي يأكل ولا يشبع، ويكون شهيداً عليه يوم القيامة».

وفي مقابل هذه الصورة البشعة المنفِّرة يطرح الرسول ﷺ تلك الصورة الوضيئة المشرقة التي يحدثنا عنها أبو ذر ـ هذا الصحابي الجليل ـ: «كنت أمشي مع النبي في حرة المدينة، فاستقبلنا أحد فقال: يا أبا ذر!! قلت: لبيك يا رسول الله!! قال: ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهباً، أموت وعندي منه دينار إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا، عن يمينه

وعن شماله وعن خلفه، ثم مشى فقال: إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة، إلّا من قال هكذا وهكذا وهكذا، وقليل ما هم».

ولا يعني هذا أن الرسول ﷺ كان يحبُّ الفقر أو يدعو إليه، أبداً.. لأن هذا الموقف يتناقض أساساً مع نظرية الإسلام عن دور الإنسان الإيجابي البنَّاء في العالم، كما يتناقض مع فلسفة العدل الاجتماعي الإسلامي القائمة على ضرورة إشباع حاجات الإنسان الأساسية وإسعاده، وتمكينه من دوره، بل إنه يتناقض بالكلية مع مواقف الرسول ﷺ نفسه إزاء الفقر كظاهرة اجتماعية سلبية شاذة ومرض فتاك... من ثم كان الرسول ﷺ يساويه بالكفر كظاهرة تتميز هي الأخرى بالشذوذ والمرضية على كل المستويات، كان يستعيذ منهما على السواء.. كان يقول: «كاد الفقر أن يكون كفراً». وأنّى للجائع أن يرتفع بأشواقه ووجدانه إلى السماء، ويناجي الله على مكث ويتأمل في ملكوت السماء والأرض وأمعاؤه تتقطع ألماً ومسغبة وجوعاً؟! وكان ﷺ يدعو الله: «اللهمَّ إني أعوذ بك من الكفر والفقر» فقال رجل: أيعدلان؟ أجاب الرسول: «نعم»!!

وعن طبيعة العلاقات الاجتماعية الإيجابية المتينة العميقة التي تربط بين أفراد المجتمع المسلم الواحد، وتسوسهم بمنطق التكافل، وتجعلهم كالبنيان، يمنحنا الرسول ﷺ مزيداً من القيم والتعاليم.. عن عبد الله بن عمرو: أنَّ رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أيُّ الإسلام خير؟ قال: «تطعم الطعام، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف».

وعن أنس، عن النبي ﷺ، قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحب لنفسه»؛ «لا يؤمن» بهذا الجزم!!...

والمحبة ليست عواطف تمنح فحسب، بل إنها عطاء وتضحية، ونبل وإيثار وإلا فلن تستكمل أبعادها أبداً. والحديث التالي يسلط أضواء أكثر

على المسألة: عن أبي موسى: أن النبي ﷺ قال: «على كل مسلم صدقة». فقالوا: يا نبيَّ الله! فمن لم يجد؟ قال: «يعمل بيده فينفع نفسه ويتصدق» قالوا: فإن لم يجد؟ قال: «يعين ذا الحاجة الملهوف» قالوا: فإن لم يجد؟ قال: «فليعمل بالمعروف، وليمسك عن الشر؛ فإنها له صدقة».

ويصور الرسول ﷺ في حديث آخر المسؤولية الاجتماعية المشتركة الملقاة على عاتق المسلمين جميعاً في المسير بالجماعة إلى بر العدل والخير والأمان، قال: «مثل القائم على حدود الله والواقع فيها؛ كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقاً ولم نؤذِ من فوقنا!! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً».

من أجل ذلك قال الرسول ﷺ في حديث آخر: «المسلم للمسلم كالبنيان يشد بعضه بعضاً».

ومن ثم فإن أي خلل يصيب البناء الاجتماعي يجيء بمثابة علامة خطر أكيدة في مسيرة الجماعة الاسلامية كلها، فإن تداركوا الخلل نجوا وإلا فإن البناء سيتصدع والمركب سيستقر بهم في الأعماق!!

وتقودنا قضية (الترابط الاجتماعي) هذه إلى مسألة من أهم مسائل العدل الاجتماعي في الإسلام، تلك هي التكافل الاجتماعي الذي تأمر به الدولة، أو تقوم به الجماعة تطوعاً واختياراً، ومن وراء الدولة والجماعة أحاديث وقيم طرحها الرسول على طول حياته بين مكة والمدينة متدرجاً وأصحابه بين (الزكاة) كحد أدنى من العطاء مفروض على المال، وبين الاشتراك الكامل فيه، مروراً (بالتصدق) الذي لا حدَّ له، والذي يتراوح هو الآخر بين الكلمة الطيبة والدرهم والدرهمين، وبين التنازل الكامل عن المزارع والأراضي والممتلكات والأموال.

عن ابن عمر: أن رسول الله ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإن فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلّا بحق الإسلام، وحسابهم على الله».

وعن أبي عباس: أن النبيَّ ﷺ بعث معاذاً إلى اليمن فقال له: «ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم».

وفي مقابل هذا قال: «إن في المال حقّاً سوى الزكاة».

ونذكر بهذا الصدد ما قاله الإمام الغزالي في المستصفى «إذا خلت أيدي الجند من الأموال، ولم يكن من مال المصالح ـ بيت المال ـ ما يفي بخراجات العسكر، وخيف من ذلك دخول العدو بلاد المسلمين، أو ثوران الفتنة من قبل أهل الشر، جاز للإمام أن يوظف على الأغنياء مقدار كفاية الجند».

وما قاله الشاطبي معلقاً على ذلك «وقد نفذ هذا في زمن الدولة الإسلامية، ومن ذلك في عهد الملك قطز لرد التتار بناء على فتوى سلطان العلماء العز بن عبد السلام رحمه الله تعالى»، «واتفق العلماء أنه إذا نزلت بالمسلمين حاجة بعد أداء الزكاة فإنه يجب صرف المال إليها».

وما قاله الإمام مالك: «يجب على الناس فداء أسراهم وإن استغرق ذلك أموالهم، وهذا إجماع أيضاً».

ويمضي رسول الله ﷺ متحدِّثاً عن المسألة من أكثر من زاوية؛ قال: «ليس المؤمن الذي يشبع وجاره جائع إلى جنبه وهو يعلم».

وقال: «أيما أهل عرصة أصبح فيهم امرؤ جائعاً، برئت منهم ذمة الله ورسوله».

وقال: «إذا بات مؤمن جائعاً فلا مال لأحد».

ويعلق الدكتور علي البارودي على هذا الحديث (في كتابه: دروس في الاشتراكية العربية) بقوله: «إنه ما دام في المجتمع جائع واحد أو عار واحد، فإن حق الملكية لأي فرد من أفراد هذا المجتمع لا يمكن أن يكون شرعياً، ولا يجب احترامه، ولا تجوز حمايته... ومعنى ذلك أن هذا الجائع الواحد يسقط شرعية سائر حقوق الملكية إلى أن يشبع».

وتعليقاً على حديث آخر بهذا الصدد وهو «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه» يقول ابن حزم في كتابه المحلى، باب الزكاة: «من تركه يجوع ويعرى فقد أسلمه» ويضيف أن للجائع عند الضرورة أن يقاتل في سبيل حقه في الطعام الزائد عند غيره، «فإن قتل الجائع فعلى قاتله القصاص، وإن قتل المانع فإلى لعنة الله!!» ويستطرد ابن حزم قائلاً: «.. وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم، ويجبرهم السلطان على ذلك، إن لم تقم الزكوات بهم، ولا في سائر أموال المسلمين بهم، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذي لا بد منه، ومن اللباس في الشتاء والصيف بمثل ذلك، وبمسكن يكنهم من المطر والصيف والشمس وعيون المارة». وهو يروي حديث الرسول ﷺ «من كان عنده طعام اثنين فليذهب بثالث، ومن كان عنده طعام أربعة فليذهب بخامس أو سادس»!!

وفي أكثر من مرة يعلن الرسول ﷺ عن تعهد الدولة للفقراء والضعفاء والعاطلين والعاجزين: «من ترك كَلّاً (أي ذرية ضعيفة) فليأتني فأنا مولاه»، «ومن ترك ضياعاً؛ فعليَّ ضياعه»، «ما من مؤمن إلا وأنا أولى به في الدنيا والآخرة».

وفي حديثه الشهير: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالإمام راع وهو مسؤول عن رعيته..» يعلن ﷺ مسؤولية الحاكم أو الدولة الإسلامية عن كافة رعاياها، مسؤولية شاملة، ولم يستطع أحد أن يقول: إن للحاكم أو الدولة ألَّا تعتبر نفسها مسؤولة عن أولئك الذين يموتون جوعاً ولا يقدرون على ممارسة أدوارهم الطبيعية في الحياة، لأنهم قد أخرجوا بالفقر والجوع والحرمان عن مواقفهم الصحيحة، لأن المسؤولية واحدة لا تتجزأ، وهي ترد في هذا الحديث (مطلق) مسؤولية لا مسؤولية، جزئية عن جانب ما من جوانب العلاقة بين الحاكم والمحكوم.

ويتقدَّم ﷺ خطوات أخرى واسعة مدهشة في مجال العدل والتكافل الاجتماعيين وصل بهما إلى الآفاق التي ما كانت (ظروف الإنتاج)، وفق التفسير المادي للتاريخ، تسمح بمجرد التفوه بها. قال: «من ولي لنا عملاً وليس له منزل فليتخذ منزلاً، وليست له زوجة فليتزوج، أو ليس له دابة فليتخذ دابة».

وقال «طعام الاثنين كافي الثلاثة، وطعام الثلاثة كافي الأربعة».

وثمَّن ما كان يفعله (الأشعريون) من عرب الجنوب بكلمات توحي أنه لم يكن يباركهم فحسب، بل (يأمر) بتنفيذ (أسلوبهم) أيام الأزمات والمجاعات والمهمات (المشتركة): «إنَّ الأشعريين ـ يقول ﷺ ـ إذا أرملوا في الغزو، أو قلَّ طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني وأنا منهم».

«اقتسموه في إناء واحد بالسوية»، «فهم مني وأنا منهم»، تلك كلمات وإشارات ما كان لها أن تفلت من بين أيدينا وتغيب عن أذهاننا حتى لو مضى عليها آلاف من السنين!!

ثم ها هو الرسول ﷺ يعلن في إحدى الأسفار مخاطباً أتباعه: «من كان

معه فضل ظهر فليعد به على من لا ظهر له، ومن كان له فضل زاد فليعد به على من لا زاد له...». ويضيف الرواة: أن الرسول ﷺ ذكر حينذاك من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حقَّ لأحد منا في فضل!!

ثانياً: التجارب والممارسات الجماعية:

تبرز تجربة (المؤاخاة) المعروفة في مقدمة الممارسات الجماعية التي نفذها الرسول ﷺ، في المدينة، أول عهد الدولة الإسلامية بالظهور والتشكُّل، وقد أراد ﷺ أن يحلَّ بهذه التجربة (الأزمة المعاشية) التي اجتاحت المهاجرين بعد مغادرتهم مكة، مخلفين وراءهم أموالهم وممتلكاتهم، وينظم علاقاتهم الاجتماعية بإخوانهم الأنصار، ريثما يستعيد المهاجرون مقدرتهم المالية، ويتمكنوا من بلوغ مستوى (الكفاية الاجتماعية). فاعتمد أسلوب المؤاخاة والمشاركة بين الطرفين، فقال: «تآخوا في الله أخوين أخوين».

وقد بلغ من تأكيد الرسول ﷺ على تعميق (المشاركة) أن كان ميراث الأنصاري يؤول بعد وفاته إلى أخيه المهاجر بدلاً من ذوي رحمة من الإخوة أو الأبناء أو النساء. واستمر ذلك حتى موقعة بدر التي حظي فيها المهاجرون بمقادير لا بأس بها من الغنائم والأموال، مكنتهم من الحصول على تعويض نسبي عما خسروه أثناء الهجرة، وحينذاك أنزل الله تعالى: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِۗ﴾، فعاد التوارث سيرته الأولى، وتأكدت بالمقابل قاعدة أساسية أخرى من قواعد العدل الاجتماعي في الإسلام، والتي تجعل الجهد البشري يتوزَّع وفق دائرة، أكثر منطقية، تبدأ بالإخوة والأبناء، وتتسع لكي تضم الوحدة الاجتماعية كلها، مروراً بذوي القربى والجار، تقديراً منه للتكوين النفسي العميق للإنسان، وفطرته التي تميل في (العطاء) في الأعم الأغلب للأقرب فالأبعد.

وقد تلقى الأنصار أوامر الرسول ﷺ بفرح عميق، وفتحوا قلوبهم ودورهم لرفاقهم في العقيدة، حتى إنَّ الواقدي يذكر بأن الرسول ﷺ لما تحوَّل من بني عمرو بن عوف في قباء إلى المدينة، تحوَّل أصحابه من المهاجرين، فتنافست فيهم الأنصار أن ينزلوا عليهم، حتى اقترعوا فيهم بالسهمان، فما نزل أحد منهم على أحد إلا بقرعة سهم، كما أعلن الأنصار أنهم يهبون الرسول ﷺ كل فضل في خطط بلدهم، وقالوا له: إن شئت فخذ منا منازلنا.

فقال لهم خيراً، وخطَّ لأصحابه في كل أرض ليست لأحد أو موهوبة من الأنصار.

ولما غنم المسلمون أموال بني النضير (سنة ٤هـ)، دعا الرسول ﷺ الأنصار وذكَّرهم بما صنعوا للمهاجرين وإنزالهم إياهم في منازلهم، وأثرتهم على أنفسهم، ثم قال: «إن أحببتم قسمت بينكم وبين المهاجرين مما أفاء الله عليَّ من بني النضير، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السكنى في منازلهم وأموالهم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم»، فأجابه زعماء الأوس والخزرج: يا رسول الله! بل تقسمه للمهاجرين، ويكونون في دورنا كما كانوا، ونادت الأنصار: رضينا يا رسول الله.

وقابل المهاجرون إيثار إخوانهم وسماحتهم بتقدير كامل وسماحة مماثلة، رافضين منذ البدء أن يكونوا اتكاليين على إخوانهم، وعالة على أولئك الذين آووهم وقاسموهم، وليست قصة عبد الرحمن بن عوف مع أخيه الأنصاري سعد بن الربيع سوى مثل واحد من عديد من الأمثلة على هذا التقابل الأخوي العادل في الأخذ والعطاء. روى البخاري: أن المهاجرين لما قدموا إلى المدينة آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع، فقال سعد لرفيقه: إني أكثر الأنصار مالاً، فأقسم

لك نصف مالي، وانظر أي زوجتيَّ هويت نزلت لك عنها، فإذا حلَّت تزوجتها، فقال له عبد الرحمن: لا حاجة لي في ذلك، هل من سوق فيه تجارة؟ قال: سوق قينقاع. فغدا عبد الرحمن فأتى بأقط وسمن، ثم تابع الغدو، وما لبث أن جاء وعليه أثر الصفرة (أي الزينة) فسأله رسول الله: «تزوجت؟» قال: نعم. قال: «ومن؟» قال: امرأة من الأنصار، قال: «كم سقت إليها؟» أجاب: زنة نواة من ذهب!!

لقد كان الإخاء تجربة رائدة من تجارب العدل الاجتماعي، ضرب الرسول فيها مثلاً على مرونة الإسلام وانفتاحه في الظروف المناسبة على أشد (أشكال) العلاقات الاجتماعية مساواة وعدلاً، وردَّ فيها، وفق المنطق الإلٰهي الذي لا يحابي ولا يداجي على كل القائلين بأن الإسلام جاء لكي يمثِّل (إصلاحاً) جزئياً للمسألة الاجتماعية، لأن (العصر) الذي تصوغه (وسائل الإنتاج) لم يتح له أن يتحرَّك لصياغة عالم جديد من العلاقات لم تسمح المرحلة الإنتاجية بعدُ بصياغتها ولم تأمر بها. وسنرى بعد قليل، عبر سني الدعوة الحافلة، المزيد من التجارب الاجتماعية التي ترفض منطوق هذا التحليل الخارجي الصارم، تلك التجارب التي لا تقلُّ في دلالتها وأهميتها عن تجربة (المؤاخاة).

لقد نجحت التجربة؛ لأن الأرضية التي أقيمت عليها، والقيادة التي خططتها ونفذتها، استكملتا كل شروط النجاح في مجتمع شاب يحكمه مبدأ العطاء قبل الأخذ، وتشده أواصر العقيدة وحدها، ويوجهه الإيمان العميق في كل حركاته وأعماله وفاعلياته، ويقوده الرسول (الأسوة) الذي ضرب بتجرده وإيثاره، وانسلاخه عن الأخذ، وعطائه الدائم، مثلاً عالياً ومؤثراً يحرك حتى الحجارة الصم، لكي تنبجس فيتدفق منها الماء، وأنى لتجربة كهذه أن تفشل وتتعثر والرسول ﷺ يخوض مع أصحابه من الكبار والقادة تجربة الفقر والجوع في سني الهجرة الأولى، لا يعاني كما يعانون، بل أكثر

مما يعانون، دون أن يفكر يوماً بأن يمتطي منصبه (الأعلى) ليسلك طريقاً آخر غير الذي يسلكه أتباعه، فيثري ويفقرون، ويأخذ ويعطون، ويشبع ويجوعون. . وسنرى في المقطع الأخير من هذا البحث، الأبعاد العميقة الشاملة للالتزامات الأخلاقية التي أخذ الرسول بها نفسه في هذا الميدان الخطير في حياة البشرية.

إن تجربة المؤاخاة نجحت، وكان لا بدَّ لها أن تنجح ما دامت قد استكملت الشروط، وتهيأت لها الأسباب في القيادة والقاعدة على السواء، وبغض النظر عن عدد الذين تآخوا عشرات كانوا أم مئات أم ألوفاً.

وبمرور الوقت أخذت الممارسات الجماعية على مستوى القيادة والقاعدة تزداد وتتنوع، وتقدم لنا الدلائل والإشارات على رغبة الإسلام (العملية) العميقة في التسوية الاجتماعية، متمثِّلة بفاعلية الرسول وأتباعه، وبما كان يرافقها ويوازيها ويعقب عليها من آيات وأوامر وبرامج يتنزل بها الوحي من السماء، وتغطي مساحات كبيرة من كتاب الله.

روى ابن سعد أن عدداً من أبناء القبائل قدموا على رسول الله ﷺ في أعقاب فتح خيبر (مطلع عام ٧هـ)، فكلَّم الرسول أصحابه فيهم أن يشركوهم في الغنيمة، ففعلوا.

وروى الواقدي أن المسلمين لما فتحوا حصون خيبر وجدوا هنالك متاعاً وسلاحاً وأثاثاً كثيراً «فأما الطعام والأدم والعلف فلم يخمس، يأخذ منه الناس حاجتهم».

كما يروي أن الرسول ﷺ نادى خلال حصار الطائف سنة (٨هـ) أن أي عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حر، فخرج إليه بضعة عشر رجلاً، فأعتقهم وسلم كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه ويحمله.

ويروي أيضاً أن الرسول ﷺ استقرض في أعقاب فتح مكة مبلغ ثلاثين ومئة ألف درهم من عدد من سكان مكة، وقسمها بين أصحابه من أهل الضعف، فيصيب الرجل خمسين درهماً أو أقل أو أكثر.

ويروي البلاذري: أن يهود فدك صالحوا رسول الله ﷺ على نصف الأرض، فكان يصرف ما يأتيه منها على أبناء السبيل.

وفي رواية أخرى له عن أبيض بن جمال أنه استقطع رسول الله ﷺ الملح الذي بمأرب، فقال رجل: إنه كالماء العد (أي الجاري)، فأبى الرسول أن يقطعه إياه.

وعن عبد الله بن هشام أنه كان يخرج إلى السوق فيشتري الطعام فيلقاه ابن عمر وابن الزبير فيقولان له: أشركنا!! فإن النبي ﷺ قد دعا لك بالبركة، فيشركهم، فربما أصاب الراحلة كما هي، فيبعث بها إلى المنزل.

وفي أنساب الأشراف: أن رجلاً من بلقين قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو بوادي القرى، فقلت: يا رسول الله! لمن المغنم؟ قال: لله سهم، ولهؤلاء أربعة أسهم. قلت: فهل أحد أحق بالمغنم من أحد؟ قال: «لا، حتى السهم يأخذه أحدكم من جنبه، فليس بأحق به من أحد».

وعن أبي بكر الصديق قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنَّما هي ـ أي فدك ـ طعمة أطعمنيها الله حياتي، فإذا مت فهي بين المسلمين».

وقال عمر بن الخطاب: كان للرسول ﷺ ثلاث صفايا، فكانت بنو النضير لنوائبه، وكانت فدك لابن السبيل، وكانت خيبر قد جزأها ثلاثة أجزاء، فجزآن للمهاجرين، وجزء كان ينفق منه على أهله، فإن فضل رد على فقراء المهاجرين.

وليس هذا التأكيد في التوزيع على (المهاجرين) سوى محاولة من الرسول ﷺ لإعادة (التوازن الاجتماعي) بينهم وبين الأنصار؛ هذه المحاولة التي بدأت بمؤاخاتهم مع رفاقهم الأنصار، ثم تطورت بمنحهم المزيد من

فرص الحصول على المال، لكي يبلغوا مرحلة الكفاية، ويتمكنوا من مواصلة نشاطهم الاجتماعي والعقائدي على السواء.

وليست مسألة توزيع أموال بني النضير الكثيرة على فقراء المهاجرين، وحجبها إلا عن قلة من الأنصار، إلا استمراراً على ذات الطريق.. وقد قدم القرآن الكريم، من خلال هذه التجربة بالذات، موقفه الحاسم إزاء التوازن الاجتماعي عندما قال: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ﴾. لكن هذا لم يمنع الرسول ﷺ تمشياً مع المبدأ نفسه من منح الأنصار، ما دعت أحوالهم المعاشية إلى ذلك. وفي رواية لأبي سعيد الخدري ما يوضح ذلك؛ حيث يقول: إن ناساً من الأنصار سألوا رسول الله ﷺ فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى نفد ما عنده فقال: «ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم»[١].

ومن المتفق عليه أن الرسول ﷺ حمى أرضاً بالمدينة يقال لها: (النقع) لترعى فيها خيل المسلمين.

وكان لسمرة بن جندب نخل في بستان رجل من الأنصار، فكان يدخل عليه هو وأهله فيؤذيه، فشكا ذلك الأنصاري إلى الرسول ﷺ ما يلقاه من سمرة، فطلب الرسول منه أن يبيعه أو يقلعه، فأبى، فقال له الرسول ﷺ: «أنت مضار»، وقال الأنصاري: اذهب واقلع نخله.

وكان الصحابة في عهد الرسول ﷺ يأتي كل واحد من أصحاب النخيل بالعذق عند جذاذه، ثم يعلّقه على باب المسجد، يأكل منه من يشاء.

وحدث في عهد رسول الله ﷺ أن كان أبو عبيدة بن الجراح يجاهد مع ثلاثة من أصحاب الرسول ﷺ ففني زادهم، فأمرهم أن يجمعوا أزوادهم في مزودين وجعل يقوتهم إياها على السواء.

---

(١) وانظر: دراسة في السيرة، فصل دولة الإسلام في المدينة للمؤلف.

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إني تزوجت امرأة من الأنصار، فسأله: «على كم تزوجتها؟» قال: على أربع أواق. فقال النبيُّ: «على أربع أواق؟ كأنما تنحتون الفضة من عرض هذا الجبل، ما عندنا ما نعطيك، ولكن عسى أن نبعثك بعثاً تصيب منه».

وفي خطبة الوداع أصدر الرسول ﷺ أمره بإلغاء كافة الديون الربوية وقال: «إن كل ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون. قضى الله أنه لا ربا، وأن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله». ولقد جاءت الخطوة بلا ريب لمصلحة الفقراء المدينين.

وعن ابن عمر قال: لقد أتى علينا زمان وما أحد أحق بديناره ودرهمه من أخيه المسلم. وعن أبي هريرة: أن الأنصار قالت للنبيِّ: اقسم بيننا وبين إخوتنا (المهاجرين) ما نملكه من النخيل، قال: «لا». فقالوا لإخوانهم المهاجرين: تكفوننا المؤونة ونشرككم في الثمرة، قالوا: سمعنا وأطعنا.

وأراد النبي ﷺ أن يقطع لبعض الأنصار أراضي مواتاً في البحرين، فأبوا إلا أن يكتب لإخوانهم من المهاجرين بمثلها، فلم يفعل النبي ذلك، إذ لم تكن هناك أراض موات غير التي أراد إقطاعها للأنصار.

ولن يستطيع المتمعن أن يمر على الوقائع الآنفة دون أن تستوقفه بعض دلالاتها: أبناء القبائل وهم يطلبون من النبي ﷺ أن (يشركهم) في غنيمة أصحابه، وطعام خيبر الذي ترك للمسلمين كافة يأخذ منه (كل حسب حاجته)، ونداء الرسول ﷺ إلى عبيد الطائف أن يغادروا أسيادهم لكي يحرروا، وتوكيل كل منهم إلى رجل من المسلمين يمونه ويحمله، واستقراض الرسول ﷺ مبلغاً ضخماً من المكيين لكي يوزعه دون مقابل على أتباعه الفقراء، و(اشتراك) ابن عمر وابن الزبير في طعام الرجل الذي دعا له الرسول ﷺ بالبركة، ووقف (المنفعة) التي تغلها أراضي فدك وخيبر

على أبناء السبيل والفقراء، وتركه ملح مأرب (مشاعاً) بين الناس، وتوزيعه فيء بني النضير على فقراء المهاجرين، وحجبه عن الأنصار، إلا من كان من ذوي الحاجة منهم، ومنحه المال لأولئك الأنصار الذين كانوا كلما سألوه لم يمنع لهم طلباً بعبارة واضحة لا تحتمل لبساً ولا غموضاً: «ما يكون عندي من خير فلن أدخره عنكم».

ثم إننا نجد في تعقيبات الرسول ﷺ على مواقف وممارسات أصحابه الجماعية، مباركته لمبدأ (العطاء) وفق المدرج الإسلامي القائم على الأقرب أولاً، كيلا تترك أية ثغرة في بنيان المجتمع، وتأكيده العميق على ضرورة إحداث التوازن بين كتل الجماعة الإسلامية، وتحقيق المساواة العادلة في صميم علاقاتها، سيما في أوقات الأزمات الاجتماعية والكوارث العامة.

ونحن هنا نجتزئ باثنين منها فحسب، لأن مواقف الأصحاب كثيرة متنوعة لا يحتملها بحث كهذا، فضلاً عن أن معظمها معروف يمكن الرجوع إليه بمجرد استعراض أدوارهم الاجتماعية والعقائدية في كتب التراجم.

عن أنس بن مالك قال: «كان أبو طلحة أكثر الأنصار بالمدينة مالاً من نخل، وكان أحب أمواله إليه بيرحاء: فلما أنزلت هذه الآية: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾... قام أبو طلحة فقال: يا رسول الله! إن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ﴾... وإن أحبَّ أموالي إليَّ بيرحاء، وإنها صدقة لله أرجو برها وذخرها عند الله، فضعها يا رسول الله حيث أراك الله، فقال رسول الله: بخ، ذلك مال رابح، ذلك مال رابح، وقد سمعت ما قلت وإني أرى أن تجعلها في الأقربين. فقال أبو طلحة: أفعل يا رسول الله، فقسمها أبو طلحة في أقاربه وبني عمه».

وعن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الأشعريين إذا أرملوا في الغزو، أو قل طعام عيالهم بالمدينة، جمعوا ما كان عندهم في

ثوب واحد، ثم اقتسموه بينهم في إناء واحد بالسوية، فهم مني وأنا منهم»!!.

«اقتسموه في إناء واحد بالسوية»!! «فهم مني وأنا منهم»!! مرة أخرى تلك تعقيبات على الموقف ما كان لها أن تفلت من بين أيدينا وتغيب عن أذهاننا حتى لو مضى عليها الآلاف من السنين!!

ثالثاً: الالتزامات والممارسات الأخلاقية:

تأخذ تجربة العدل الاجتماعي في الإسلام، من بين سائر المذاهب، بعداً أخلاقياً واقعياً يلعب دوراً حاسماً في (تنفيذ) التجربة و(حمايتها) من الاستغلال والتزييف والتزوير. ويستمد هذا البعد قوته وقدرته على أن يشق طريقه في قلب الوقائع، من المسؤولية الدائمة التي يلقيها الإسلام على عاتق المسلم، ومن يقظة ضميره الديني، ومن إحساسه الأبدي برقابة الله سبحانه على كل خطوة يخطوها وعمل يمارسه كبيراً كان أم صغيراً، ظاهراً أم باطناً... والمسلم إمَّا أن يكون مسؤولاً، يقظ الضمير، شاعراً بالوجود الإلٰهي الدائم في حياته، أو أن لا يكون مسلماً على الإطلاق... من ثم فإننا عندما نتكلم عن البعد الأخلاقي فإنما نعني به أولئك المسلمين الذين يرون هذه المسائل الأساسية في حياتهم من بداهات إيمانهم، ويعتقدون أن الخروج عنها بإرادة وتعمد مسبقين يمثل خروجاً على متطلبات الدين، ومروقاً عن معالم الإيمان.

ومهما طرحت النظريات الاجتماعية الوضعية من حمايات أخلاقية لبرامجها، ورسمت قيماً مثالية تحميها من التبديد والاستغلال والتمييع، فإن هذه (الحمايات) وتلك (القيم) لا تعدو أن تكون نظريات معلقة في عالم المثال، ما دامت لا تمتلك القوة (الداخلية) المركوزة في أعماق الإنسان، لكي تحولها إلى ممارسات وسلوك تحرسها المسؤولية، وتعمقها يقظة

الضمير، وتحركها رقابة الله الدائمة صوب الأحسن والأكمل.. من ثم كانت هذه البرامج عرضة دوماً للخيانة والمروق وكان المنتسبون إليها نهباً للازدواجية الخطيرة بين النظرية والتطبيق، بين الشعارات والتنفيذ، وبين الواقع والمثال. وما أكثر ما جرَّتْ تلك الخيانة وهذه الازدواجية النكبات والآلام، ليس فقط إزاء جماهير الناس التي مورست معها، ولكن ـ وهذا هو الأخطر ـ إزاء المذهب أو النظرية، وإزاء ثقة (الاتباع) بقدرة (القادة) على التنفيذ المخلص الأمين.

إن القضية في أساسها كما سبق وذكرت في كتاب (لعبة اليمين واليسار) قضية (أخلاقية)، فالمبادئ التي تأتي من فوق، من خارج كيان الإنسان ووجوده وفطرته، دون أن تجد سنداً من العقيدة والأخلاق والضمير في أعماق الإنسان نفسه، لا تفعل فعلها في (تحويل) ذلك الإنسان إلى تعبير حي عن مبدئه... إلى وجود عقائدي متحرك متوحد بين الفكرة والتجربة، بين الذات والموضوع، بين الوسيلة والهدف.

ومهما كانت تلك المبادئ الفوقية الخارجية جذرية، ومهما ادعت من قرب إلى (اليسار) ورفض (لليمين)؛ فإنها لا بد وإن تفتح الباب على مصراعيه لحدوث التناقض الذي لا بد وأن يجيء عاجلاً أو آجلاً.. وهكذا تبرز إلى حيز الوجود دوماً قيادات ثورية تعاني الازدواج المحزن بين ما تنادي به وما تفعله، بين ما تقوله وما تسلكه... قيادات تقف في أقصى اليمين عملياً، وتنادي بأقصى اليسار في مجال النظريات والخطب والتصريحات والأحلام!!

وهذه على سبيل المثال بعض الحقائق الموجزة عن الازدواجية الاجتماعية التي تعانيها إحدى أشد اليساريات في العالم المعاصر علمية وثورية (التجربة اليوغسلافية الماركسية اللينينية)، نقتطعها من كتاب (الطبقة

الجديدة) لميلوفان دجيلاس، القطب الشيوعي اليوغسلافي الذي لعب دوراً عظيماً في دفع الكتلة الشيوعية إلى الأمام، والرجل الثاني في يوغسلافية بعد تيتو، ذلك البلد الذي حكمته الشيوعية عشرات السنين، سعياً وراء مجتمع يسوده العدل وفق أشد المذاهب علمية وإنسانية... ميلوفان دجيلاس الذي دخل الحزب الشيوعي رسمياً عام ١٩٤١م، وفي عام ١٩٥٤م بدأ خلافه مع تيتو من أجل مطالبته باتباع النهج الاشتراكي الديمقراطي في الحكم. وقد أدى به هذا الموقف إلى أن يحكم بالسجن في السنة التالية مع وقف التنفيذ، لكنه ما لبث أن اعتقل ثلاث سنوات بسبب انتقاده لسياسة تيتو تجاه ثورة المجر. وفي تلك الفترة ألَّف كتابه الشهير (الطبقة الجديدة) كتحليل موضوعي للنظام الشيوعي في واقعه التطبيقي. ومن أجل كتابه هذا حكم بالسجن تسع سنوات أخرى!!

يقول دجيلاس في كتابه ذاك: «البيروقراطية السياسية تستخدم الأملاك المؤممة وتتصرف فيها. ص٦٧».

ويقول: «عضوية الحزب الشيوعي تعني أن العضو ينتمي إلى طبقة ممتازة ذات امتيازات، وهكذا يتجمع في لب الحزب أقوى المستثمرين. ص٧٠».

ويقول: «إن علاقة الشيوعيين مع الدولة أو الحكومة هي علاقة تعبد وثني، فهم يتصرفون بالدولة أو الحكومة كما لو أنها ملكهم الخاص ص١١٦».

ويقول «إن أنظمة الحكم الشيوعية هي شكل من الحرب الأهلية الخفية بين الحكومة والشعب ص١٢١».

ويقول «الانتخابات الشيوعية سخيفة وصفها اللورد أتلي ببراعة إذ قال عنها: إنها (سباق يجري فيه حصان واحد). ص١٢٨».

ثم يقول: «البرلمانات هي عبارة عن أضرحة للنواب الذين تتألف منهم ص١٣٠».

ونشرت المجلة الألمانية (der Spiegel) في عدد ٢٩ الصادرة في ١٥ تموز سنة ١٩٦٨م ص٤٧ ما يلي: «نشرت أربع صحف تشيكوسلوفاكية في الفترة التي ظهرت فيها أمارات الإصلاح السياسي والاقتصادي على عهد السكرتير الجديد للحزب الشيوعي دوبتشيك في آخر شهر حزيران ١٩٦٨م ـ بياناً من ألفي كلمة للنقاد والديمقراطيين، حددوا فيه الحزب الشيوعي على النحو التالي: هو منظمة للسلطة، لها قوة جذب كبيرة تشدّ إليها:

أ ـ الأنانيين ذوي الرغبة في الحكم.

ب ـ والجبناء الذين لا يعرف لجبنهم حد.

جـ ـ وأصحاب الضمائر السيئة من الناس. كما أوردت صحيفة الحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي (Rude, Pamaue) أنها «سألت قراءها عن إلغاء احتكار الحزب الشيوعي للسلطة أو بقائه. وذكرت أن تسعة من كل عشرة من القراء طالبت بالإلغاء...»[١].

هذا عن اليسار الأممي العلمي، وفيه الكفاية، فماذا عن اليساريات الأخرى التي تعرج في منتصف الطريق، لاهثة وراء المجتمع الذي تسوده الاشتراكية، حيث لا ظالم ولا مظلوم؟

حقائق وتناقضات كثيرة... كثيرة... لا يحصيها عد، ولا يمكن حصرها في عرض سريع كهذا... تناقضات شهدناها جميعاً بأم أعيننا منذ أن ابتلينا بلعبة اليسار واليمين، حيث يقف اليساريون في قمة أجهزة الحكم

---

(١) عن د. محمد البهي: تهافت الفكر المادي، هامش ١ ص٤٣.

والسلطان، يستغلون ويتنعمون ويثرون، ويتحوّلون بقدرة قادر إلى طبقة رأسمالية من نوع جديد يقترن بإرهاب أشد، وكبت أقسى، وبوليسية أعتى، وظلم أعمق سواداً، تضيع في غمراته صيحات المظلومين... تضيع لأن اليسار رغم طبقيّته واستغلاله وتنعمه وثرائه يحكم باسم المظلومين والكادحين!!

إن الإسلام وحده، ذلك الدين القيم، هو الذي يغرس مبادئه في أرض حية من الضمير والأخلاق... كل إنسان مسلم بحق هو عقيدته الحية تمشي على الأرض، وتتفاعل مع الحياة وتتحرك في الواقع المعيش... ليس ثمة مجال للتناقض بين المبادئ والأشخاص، بين القول والعمل، بين التوجيه والتنفيذ، وبين الفكرة المقولة والتجربة المعيشة.

إن الرسول ﷺ يحدثنا فيما يرويه أبو هريرة، كيف أنه سيأتي على الناس زمان لا يبالي المرء ما أخذ منه أمن الحلال أم من الحرام.. إنه يريد أن يبين لنا كيف أن الإسلام يسعى إلى أن يركز أخلاقية العدل الاجتماعي في الأعماق، إذ بدون هذه لا تستطيع أشد القوانين صرامة وأكثر السلطات ضبطاً أن تمنع الكسب الحرام والتعامل الحرام والاستغلال الحرام: غشاً وسرقة ورشوة، وابتزازاً واستنزافاً في الأسواق السود، وركوباً للمناصب من أجل امتصاص دماء الناس وعرقهم ودموعهم.

والحفاظ على أخلاقية (التزام الحلال) في علاقاتنا الاجتماعية مسألة غاية في الصعوبة؛ لأن وقودها يجب أن يكون محترقاً دائماً: شعوراً بالمسؤولية ويقظة في الضمير، يفجرها الإحساس الدائم برقابة الله التي لا تندُّ لحظة.. من ثم يغدو هذا الجهد ذو البعد النفسي (جهاداً) قاسياً يمنع الإنسان المسلم من أن ينحرف بدرجة أو أخرى صوب (الحرام)، ذلك الموقف الذي هو ضد بداهات العدل الاجتماعي أساساً، ومن ثم كان

الرسول ﷺ يقول: «طلب الحلال جهاد»، وهو يرى ما يستلزمه من إرادة لا يثنيها إغراء عن المضي في الطريق إلى نهايته.

إن ثمة صوراً رائعة، مجيدة، يعرضها تاريخنا، عن أولئك المسلمين الرواد الذين لم يعرفوا اليمين ولا اليسار، ولا الديالكتيك ولا الحتميات التاريخية، ولكنهم عرفوا كيف تكون العدالة الاجتماعية بأعمق مفاهيمها وأسمى أخلاقياتها، والذين بايعوا رسولهم العظيم على تحمُّل مسؤوليتها حتى النهاية.

كثيرون من الصحابة الكبار كانوا في جاهليتهم يملكون القصور والأموال والضياع، وعندما أعلنوا إسلامهم تنازلوا بكل تجرد عن قصورهم وأموالهم وضياعهم، ليعيشوا فقراء محرومين من أجل قضيتهم الكبرى... كثيرون منهم بلغوا أسمى المناصب ولكنهم لم يخونوا الأمانة، ولم ينسوا يوماً الأمة المسلمة، ولم يغفلوا لحظة عن تجاربها الزاخرة بالسراء والضراء.

أبو بكر (وهو ينفق في سني الدعوة الأولى في مكة ثمرة كدحه وكده عبر عمر حافل نشيط طويل... أربعين ألف درهم... وعندما يسأله رسول الله: «وماذا أبقيت لعيالك؟» يجيب الصديق: (أبقيت لهم الله ورسوله).

وعندما توليه الأمة منصب الخلافة يفرض له صحابتها الكرام راتباً سنوياً محدداً قدره مئتان وخمسون ديناراً، ولما لم يجدها تكفي لكي يعيش وعياله الكثيرون عيشة متوسطة، يطلب إليهم أن يزيدوها، وإلا عاد إلى ممارسة التجارة التي أتقنها.. فلا يزيدوه مبلغ (الخمسين ديناراً) إلا بعد نقاش طويل، وإقرار من جماهير المصلين في مسجد المدينة. ويبقى منزل الخليفة، فاتح العراق والشام، بسيطاً متواضعاً في ناحية السنح بأطراف المدينة، يغدو ويروح إليه كل يوم في أعقاب عمل متواصل حتى صلاة العشاء، على بغلته التي كانت له قبل

أن يتولى الخلافة.. وكم اشتهت زوجته صنفاً من الطعام فلم تقدر على (إشباع) رغبتها، إذ لم يكن لديها ما يعينها على ذلك.

وعمر بن الخطاب لا يبيح لنفسه بعد تسلُّمه الخلافة من الطعام والكساء أكثر مما لأي فرد من عامة المسلمين، لأنه لم يكن يرى أن له بسبب الخلافة حقّاً يزيد على ما للمسلمين من حقوق في المال، فلمّا جاء عام الجوع وأصاب المنطقة قحط شديد، أقسم ألا يذوق السمن ويأكل طيباً حتى يفتح الله على المسلمين.. وبقي عامه على هذا الحرمان والمسلمون يرون حاله، فيشفقون عليه من الجهد الذي يبذله، حتى بسر وجهه من أكل الزيت مع قلة الطعام الذي يتناوله ورداءته، وقال أحد الصحابة: «لو لم يدفع الله عام الرمادة لظننا أن عمر سيموت همّاً بأمر المسلمين»..

ويرجوه أصحابه أن يرأف بنفسه، ويشفقون عليه من الجهد الذي يبذله، ويبيحون له عن طيب خاطر منهم أن يأخذ من بيت المال ما يصلح به شأنه، ولكنه يرفض ذلك ويصر على رفضه الحاسم قائلاً: «وكيف يعنيني أمر الرعية إذا لم يمسني ما يمسهم؟!»؛ إنه هنا يقدم لنا شعاراً اجتماعياً، هو جوهر العدل الاجتماعي وروحه الأصيلة... شعاراً لا تفسره الكلمات، إنما (موقف) عمر نفسه وهو (يعاني) مع أمته من أجل أن يعمق اهتمامه بمآسيها ومتاعبها وأحزانها.

وكان يحذِّر أهله وأقرباءه قائلاً: «لا أعلم أن أحداً منكم وقع في شيء مما نهيت عنه إلا ضاعفت له العقوبة»، ولقد ظل حتى النهاية عند كلمته تلك، رغم ما جرعته إياه من آلام وألحقت به من خسائر مادية ونفسية، لم تكن وفاة ابنه عبد الرحمن الذي خالف عن أمره في مصر، سوى واحدة منها.. وكان يصادر كل ربح يكسبه أحد أفراد أسرته من التجارة أو الرعي، فيضع الربح في بيت المال ويرد المال إلى صاحبه، تخوفاً من الشبهات!!

وعثمان بن عفان (رضي الله عنه) يرى المسلمين وقد تقطعت مواردهم في أيام أبي بكر، ووقعوا في ضائقة اقتصادية قاسية، ثم ما تلبث قافلته أن تجيئه ببضائع جمة كان قد استوردها من الشام، فيسرع إليه تجار المدينة ويتقدمون إليه بعروضهم السخية، لكنه يرفض، ويعلن لهم أنه قد تركها خالصة لفقراء المسلمين يرد بها عنهم غائلة الجوع.

ثم هو بعد الخلافة ينام في أطراف المسجد، متوسداً جبّته، ثم يقوم وآثار الحصى في جنبه، فيقول الناس: هذا عثمان بن عفان، هذا أمير المؤمنين. وقال عبد الله بن شداد: «رأيت عثمان يوم الجمعة يخطب، وهو يومئذ أمير المؤمنين، وعليه ثوب قيمته أربعة دراهم أو خمسة»!!.

وكان كما يحدثنا الحسن البصري «يطعم الناس طعام الإمارة، ويأكل الخل والزيت». . .

إذا قدرت الجماهير يوماً أن تحظى بمسؤولين يأكلون الخل والزيت، ويطعمون الناس طعام الإمارة؛ فإن لنا أن نقول: إن العدل الاجتماعي قد نفذ فعلاً!!

وعلي بن أبي طالب يلتزم في خلافته الجانب الأصعب من الحياة حرصاً على أموال المسلمين، ويقول أحد معاصريه: «دخلت على علي في الكوفة وهو يرتجف تحت سمل وقطيفة، فقلت: يا أمير المؤمنين! إن الله تعالى جعل لك ولأهل بيتك نصيباً، وأنت تصنع بنفسك ما تصنع؟! فقال: والله ما أرزؤكم في ما لكم شيئاً!!».

صور كثيرة متلاحقة لا يحصيها عد، مئات من الصحابة المسلمين الرواد وقفوا مواقف كهذه، وصمموا على البقاء حتى النهاية مع أبناء الأمة التي منحتهم ثقتها ومقدراتها، بقدر صور التناقضات المحزنة التي شهدتها التجارب (الوضعية) علمية وغير علمية. . .

ولنا بعد هذا العرض الخاطف أن نجيء إلى (المعلم) الذي تلقى عنه الأصحاب تعاليم العدل الاجتماعي، وهي لم تجئ على يديه مجرد دساتير وخطب وكلمات ونظريات علمية، ولكنها جاءت سلوكاً وممارسة وتجربة وعملاً وواقعاً معاشاً. ونقف بعض الوقت لكي نتتبع تفاصيل حياة النبي اليومية الذي يكاد بعض المؤرخين المحدثين أن يتهمه بالبرجوازية.. كيف كان يأكل ويشرب، وكيف كان يلبس، وكيف كان ينام، وأهم من هذا كله، كيف كان يتعامل مع (المال).. ولا أظننا بعد هذا بحاجة إلى أي تعليق!!

سئلت عائشة: كيف كان رسول الله في بيته؟ أجابت: «كان بشراً كالبشر يصلح نعله، ويرقع ثوبه، ويخدم نفسه».

كما قال ﷺ: «أنا أجلس كما يجلس العبد، وآكل كما يأكل العبد».

كان يجلس على الأرض، ويوضع طعامه على الأرض. كان قدحه من خشب غليظ مضبب بحديد. كان إذا سقى أصحابه شرب آخرهم. وإذا لم يجد الطعام صبر، حتى إنه ليربط على بطنه الحجر من الجوع. كان يعمل في حفر الخندق يوم غزو الأحزاب، فرأى صحابته الحجر على بطنه من شدة الجوع. وكان يمر عليه الشهر لا يجد ما يخبزه «ولكن كان لنا جيران من الأنصار ـ تقول زوجته عائشة ـ نعم الجيران، كانوا يهدوننا بعض الطعام»، ولو كان لنا مصباح ـ تقول عائشة ـ أيضاً لأكلنا زيته!!

صلَّى مرة جالساً من شدة الجوع. قدموا له عصير اللوز فقال: «أخِّروه عني هذا شراب المترفين». لم يكن لديه قط قميصان معاً، ولا رداءان ولا إزاران ولا نعلان. وأهدي إليه من الشام جبة وخفان، فلبسهما حتى تمزقا، وحج في قطيفة لا تساوي أربعة دراهم. كان يلبس الصوف أرخص شيء وقتها، ويخصف النعل، ويرقع القميص، ويركب الحمار، وكانت له حصيرة ينام عليها، ويبسطها في النهار فيجلس عليها.. نام عليها حتى أثرت في جنبه. وكانت له مخدة من جلد حشوها ليف، وأحياناً ينام على

عباءة تثنى مرتين، فطوتها زوجته حفصة أربع مرات، فلما نام عليها كان من لينها ورفاهيتها أن استغرق في النوم حتى فاتته صلاة الليل، فنهى حفصة عن ذلك، وأمرها أن تعيد العباءة إلى وضعها الأول. ورأت امرأة من الأنصار ما ينام عليه، فأهدته مرتبة من الجلد حشوها صوف، فأمر عائشة بأن تردها، قالت: «فلم أردّها حتى أمرني ثلاثاً لأنني كنت أحب أن يكون في بيتي مثل هذا»[1]!!

دخل عليه عمر يوماً، فرآه على حصير قد أثر في جنبه، ورفع رأسه في البيت فلم يجد إلا إهاباً معلقاً، وقبضة من شعير، وحصيراً تكاد تبلى، فبكى عمر، فقال له: «ما يبكيك يا بن الخطاب؟» قال عمر: يا نبيّ الله! ما لي لا أبكي وهذا الحصير قد أثر في جنبك؟ وهذه خزانتك لا أرى فيها إلا ما أرى، وذلك كسرى وقيصر في الثمار والأنهار، وأنت نبي الله وصفوته؟ فقال ﷺ: «أفي شك أنت يا بن الخطاب؟! أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم في الحياة الدنيا»!!.

في أحد الأيام الأولى للهجرة، أيام الجوع والفقر والمسغبة، يلتقي ﷺ في أحد أزقة المدينة بجماعة من أصحابه، تكسو وجوههم الصفرة، ويطوي أجسادهم العناء وقلة الطعام، يشتكون إليه من الجوع، ويكشفون عن بطونهم التي يشد كل منهم عليها قطعة من حجارة ليسكت جوعتها، فيبتسم الرسول ﷺ ولا يعزيهم بالكلمات، فالكلمات في ساعات الجوع الكافر لا تغني ولا تطعم، يكشف لهم بطنه فإذا به قد شد عليها قطعتين من الحجارة الصماء!!

قال: «إني أتزوج النساء، وآكل اللحم، وأنام وأقوم، وأصوم وأفطر، فمن رغب عن سنتي فليس مني».. فلا يتصور أحد أن الرسول في مواقفه التي نعرضها هنا كان يدعو إلى الزهد والفرار..

---

(١) عن هذه النقطة انظر بالتفصيل: جلال كشك: الحق المر.

وناداه رجل: يا سيدنا وابن سيدنا، فقال: «لا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد بن عبد الله، عبد الله ورسوله، والله ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي».

وكان أصحابه إذا رأوه قادماً عليهم لم يقوموا إليه،وهو أحب الناس إليهم، لما يعرفون من كراهيته لقيامهم.

وكان يكره أن يمشي أصحابه وراءه، ويأخذ بيد من يفعل فيدفعه إلى السير بجانبه..

رآه رجل فارتعد، فقال رسول الله ﷺ: «هون عليك؛ فإني لست ملكاً، إنما أنا ابن امرأة كانت تأكل القديد»...

ما كان يغلق دونه الأبواب، ولا يغدى عليه بالجفان ولا يراح عليه بها... كان من أراد مقابلة نبي الله يقابله!![١].

ونعود مرة أخرى إلى طعام رسول الله ﷺ ما دام بحثنا هذا ينصب بالدرجة الأولى على مسألة (الطعام) كحاجة أساسية:

روى البخاري: أن أنس بن مالك قال: ما أعلم ﷺ رأى رغيفاً مرققاً حتى ألحق بالله، ولا رأى في بيته شاة سميطاً بعينه قط. وعن عائشة قالت: إنا كنا لننظر إلى الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله نار. فقال لها عروة بن الزبير: ما كان يعيشكم؟ أجابت: الأسودان، التمر والماء.

وقالت رضي الله عنها: لقد توفي رسول الله ﷺ وما في رفي من شيء يأكله ذو كبد، إلا شطر شعير في رف لي!! وعن أنس قال: ما أعلم النبي ﷺ خبز له مرقق قط، ولا أكل على خوان قط.

(١) انظر: جلال كشك، الحق المرّ.

وعن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ خرج من الدنيا ولم يشبع من خبز الشعير. وعن عائشة قالت: ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البر ثلاث ليال تباعاً حتى قبض. وعن أنس: أنه مشى إلى النبي بخبز شعير.. وقال: لقد رهن النبي درعاً بالمدينة عند يهودي وأخذ منه شعيراً لأهله، ولقد سمعته يقول: «ما أمسى عند آل محمد صاع بر ولا صاع حب».

وعن أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ يؤتى بالتمر عند ضرام النخل، فيجيء هذا بتمره وهذا من تمره، حتى يصير عنده كوماً من تمر، فجعل الحسن والحسين يلعبان بذلك التمر، فأخذ أحدهما تمرة فجعلها في فيه، فنظر إليه رسول الله فأخرجها من فيه، فقال: «أما علمت أن آل محمد لا يأكلون صدقة؟!».

وماذا عن نساء الرسول ﷺ وبناته وأهل بيته؟ اشتكت إليه فاطمة بنته ما تلقاه من أعمال البيت من شدة وعناء، وطلبت إليه أن يخدمها خادماً، فرفض ﷺ ذلك وقال لها: «لا أعطيك وأدع أهل الصفة (وهم جماعة من الفقراء) تطوى بطونهم من الجوع».

وأتى النبي بيت فاطمة ليزوره، ثم عدل فلم يدخل عليها، فبعثت علياً ليسأل الرسول ﷺ عن سبب عدوله عن زيارتها، فأجاب الرسول: إني رأيت على بابها ستراً موشياً.. وأرى أن ترسلي به إلى أهل بيت فلان فهم في حاجة»..

وأراد زيارتها مرة أخرى، فعاد كذلك دون أن يدخل عليها، فأرسلت متسائلة عن سر ذلك فأجابها: «إني وجدت في يديها سوارين من فضة!!» فبلغها ذلك، فأرسلتهما إليه، فباعهما وتصدق بثمنهما على الفقراء!!

أما نساؤه فقد أوجب الرسول ﷺ عليهن كما يقول محمد الغزالي: «أن يتحملن شدة ما كنَّ يعرفنها من قبل. لقد جئن إليه من بيوتات كبيرة،

وأكثرهن اعتادت في صدر حياتها الزاد الطيب والنعمة الدافقة، إما مع آبائهن وإما مع رجالهن السابقين، فلا عجب إذا تململن من هذه الحياة الجديدة، وطلبن الرغد والنعومة، وتجمعن ليسألن الرسول ﷺ مزيداً من النفقة تتزعمهن عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر . . . وحزن رسول الله لهذه المظاهرة.

إنه المسلم الأول على ظهر الأرض، وأبصار المؤمنين والمؤمنات ترنو إليه من كل ناحية، وهو بصدد بناء أمة تشق طريقها وسط ألوف مؤلفة من الخصوم المتربصين، فإذا لم يعش بيته عيشة المجاهد المحصور فكيف يواصل الكفاح ويكلف الرجال والنساء من أمته أن يذهلوا عن كل شيء إلا السير بدينهم حتى يبلغ مأمنه؟ لذلك رفض النبي ﷺ الاستجابة لرغبات نسائه في توسيع النفقة، وكره منهن هذا التطلع، فقرر مقاطعتهن، حتى شاع بين الناس أن النبي ﷺ طلق نساءه جملة. .

وفزع أبو بكر وعمر لهذه الإشاعة، فذهبا يستأذناه ليدخلا عليه، وليتعرفا جلية الخبر، فلمّا دخلا وجدا النبي صامتاً وحوله نساؤه واجمات. وسأله عمر: أطلقت نساءك يا رسول الله؟ قال: «لا». . إلا أن جو الحزن كان يخيم على المكان. فقال عمر: لأكلمن رسول الله لعله يضحك!! فقال: يا رسول الله! لو رأيت ابنة زيد ـ يعني زوجته ـ سألتني النفقة لوجأت عنقها! فضحك النبي حتى بدا ناجذه، وقال: «هن حولي يسألنني النفقة؟» فقام أبو بكر إلى عائشة يؤدبها، وقام عمر إلى حفصة؛ كل منهما يقول: تسألان النبي ما ليس عنده؟! وهجرهن النبي شهراً، حتى يشعرن بما فعلن.

ونزلت آيات التخيير من عند الله تطلب إليهن جميعاً إما التجرد للدار الآخرة مع رسول هذه طريقة في حياته، وإما اللحاق بأهلهن حيث الملابس الحسنة والمآكل الدسمة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ

وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلۡأَخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلۡمُحۡسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾. وكان هذا الدرس كافياً ليمحو آخر ما في أنفسهن من رغبة لا تتجاوز المباحات المشتهاة! فاخترن جميعاً البقاء مع النبي ﷺ.

ولا بأس هنا، ونحن نتحدث عن زوجات الرسول ﷺ، أن نشير إلى ما ذكره محمد أسد (ليوبولد فايس) في كتابه (الطريق إلى مكة) عن زوجة (مكسيم غوركي)، الأديب الاشتراكي الكبير، حيث يقول: «في عام ١٩٢١م حلت بروسية السوفياتية مجاعة انتشرت فيها بشكل لم يسبق له مثيل من قبل. كان الجوع يعضّ بنابه ملايين الخلق، وكان مئات الألوف من الناس يموتون من الطوى... ووضعت الخطط من أعمال الإغاثة الأجنبية... كذلك قاد مكسيم غوركي إحدى الحركات الواسعة النطاق داخل روسية... وفي ذلك الحين ترددت شائعات مفادها أن زوجته ستزور قريباً عواصم أوروبة الوسطى وأوروبة الغربية محاولة تعبئة الرأي العام العالمي لإسداء معونة أكثر فعالية وجدوى..».

ويمضي أسد في حديثه إلى أن يصل بنا لحظة السماح بمقابلته الصحفية مع (السيدة): «... لقد كانت امرأة صغيرة ناعمة، في الخامسة والأربعين على وجه التقريب، مرتدية ثوباً أسود حسن التفصيل، وعلى كتفها دثار حريري طويل يرفل وراءها على الأرض. لقد كانت أرستقراطية خالصة في مظهرها، بحيث إنه كان من العسير حقاً تصورها زوجة لشاعر (الإنسان الكادح)، ومن العسير كذلك تخيلها إحدى مواطنات الاتحاد السوفييتي»!!

❊ ❊ ❊

أما المفكر الفرنسي (أندريه جيد) الذي قال يوماً: «لقد تحدثت من سنوات عن حبي وإعجابي بالاتحاد السوفييتي؛ حيث كانت تتم تجربة لم

يسبق لها مثيل، تجربة ملأت قلبي بالآمال العظام في تقدّم رائع يشمل البشرية كلها، ويدفع بها إلى الأمام. لقد كان مما أسعدني أنني عشت في ذلك الوقت كي أتمكن من مشاهدة هذا البعث الجديد، ومن تقديم حياتي رخيصة في سبيله. لقد صممت في داخلي على أن أربط نفسي بمصير الاتحاد السوفييتي باسم ثقافة المستقبل».

فلنستمع إليه بعد أن استضافه الاتحاد السوفييتي عام ١٩٣٦م يقول: «إنني ما سافرت في حياتي في مثل هذه الأبهة والنعمة. كنت في كل مكان أركب أفخم السيارات، وأسكن في فندق فخم الحجرات، وآكل أفخم الأطعمة، وكانت لي عربة خاصة في القطارات. وهكذا كنت أحصل دائماً على الأفضل في كل شيء، وأي تكريم ذلك الذي لقيته في كل مكان! لقد كان يهتف لي ويولم لي ولم يكن شيء أغلى من أن يقدم لي. وما كان يمكن إلا أن أحمل معي أعجب الذكريات عما لقيت من ترحيب.

إلا أن كل هذا التكريم، مع ذلك، كان يذكرني دائماً بالامتيازات والفروق، بينما كنت أرجو أن أجد المساواة، ولما استطعت أن أفلت من الموظفين الرسميين وأدخل بين العمال، اكتشفت أن معظمهم يعيش في فقر مدقع، بينما في كل مساء تقام لي أنا الولائم التي كانت فيها فواتح الشهية وحدها من التنوع والدسامة والكثرة بحيث تتخم الشهية قبل أن يبدأ الطعام الأساسي، ذلك الطعام الذي كان من ستة أدوار تتطلب من المطاعم بضع ساعات. ولما كنت لم أحتج أبداً إلى تسديد حساب طوال فترة وجودي في الاتحاد السوفييتي، فإن من الصعب عليّ أن أقدر تكاليف أمثال هذه الولائم. إلا أن صديقاً لي مطلعاً على مستوى الأسعار في الاتحاد السوفييتي أخبرني أن الفرد الواحد في أمثال هذه الولائم يتكلَّف بين المئتين والثلاثمئة روبل، هذا بينما العمال الذين التقيت بهم ما كانوا يربحون سوى خمس روبلات في اليوم. وكان عليهم أن يكتفوا بالخبز الأسود والسمك

المجفف... لقد ذهلت لما رأيت الفرق العظيم بين نصيبنا ونصيب عامة الناس، بين هذا الترف الزائد وهذا الفقر المدقع... إن الذي آلمني أكثر من غيره أن وجدت في روسية ما كنت أضيق به في بلدي، تلك الامتيازات والفروق التي حسبت أنها قد ذهبت إلى غير رجعة».

ويمضي جيد إلى القول: «... إن العمال طبعاً لم يعد يستغلهم حملة الأسهم الرأسماليون، إلا أنهم مع ذلك يستغلون أبشع الاستغلال، وبطرق خفية منحرفة ملتوية، بحيث لم يعد العمال يعلمون على من يلقون اللوم. إن غالبيتهم العظمى يعيشون تحت مستوى الفقر، وإن أجورهم الهزيلة هذه هي التي تعين على ملء جيوب العمال المميزين الذين يمتازون بانعدام الشخصية وبالتزلف والخضوع. إن الإنسان ليروعه ما يلحظه على ذوي الشأن من عدم مبالاة بمن هم أقل منهم شأناً، كما يروعه ما يظهره الأخيرون من تذلل وعبودية، آمناً بأنه لم تعد هناك طبقات أو امتيازات طبقية في الاتحاد السوفييتي، إلا أن الفقراء لا زالوا هم الفقراء، بل إن عددهم جد كبير... إنني أخشى أن يكون معنى هذا كله العودة إلى نوع من (بورجوازية الطبقة العاملة) تشبه (البورجوازية الحقيرة) التي تركتها في بلدي، ولقد بدأت فعلاً أرى أعراضها... إن الإنسان لا يمكن إصلاحه من الظاهر، فإن تغيير القلب وإصلاحه أمر جوهري..!!».

وما يلبث جيد أن يعطينا أمثلة أخرى مما رآه هناك: «عندما زرت (سوتشي) عجبت لكثرة المصحات والاستراحات التي أنشئت لأجل العمال... إلا أن من المؤسف أن غالبية من يتمتعون بهذه الميزات هم من الطبقة المميزة الجديدة..وإنه لمن المحزن أن نرى قريباً من هناك الرجال الذين يعملون في بناء هذه الاستراحات ذاتها، وكيف يحصلون على أجور غاية في الضآلة، ويحشرون في مخيمات دنيئة حقيرة. وإذا كنت أحمل كل هذا الإعجاب للاستراحات في (سوتشي)؛ فماذا أقول عن فندق (سينوب)

الذي كنت أقطن فيه؟ لقد كان أرقى وأسمى من كل شيء آخر، بحيث لا يقارن إلا بأفخم فنادق أوروبة وأعظمها. كانت كل غرفة لها حمامها الخاص وشرفتها وأثاثها الفاخر، كما كان الطعام يوازي الأطعمة في أي مكان آخر. وكان بجوار الفندق مزرعة نموذجية تمده بثمرها، وكانت المزرعة تشتمل على زرائب نموذجية للخيل والبقر والخنازير وبيوت للدجاج، وكلها مهيأة بالوسائل الحديثة. إلا أنك إذا عبرت النهر الذي يحد هذه المزرعة رأيت صفّاً من الأعشاش الحقيرة، يعيش في كل حجرة من حجره الصغيرة (ستة أقدام مربعة) أربعة أفراد، ويدفع كل منهم روبلين إيجاراً شهرياً...».

«... إنني أرى منذ الآن بذوراً بورجوازية تنتشر بين هذه الجماهير التي لم تختبر بعد. بورجوازية فيها كل ما فينا من أخطاء وآثام. إنهم لا يكادون يرتفعون قليلاً عن مستوى الفقر حتى يحتقرون الفقراء، ويتملكهم الحسد والرغبة في تملك كل ما كانوا محرومين منه من عهد طويل، إنهم يعرفون الآن كيف يتملكون هذه الأشياء، وكيف يحافظون عليها فلا تضيع...»[١].

❀ ❀ ❀

وماذا عن تعامله ﷺ مع المال؟!:

في أعقاب معركة حنين (سنة ٨هـ) عندما راح يوزع الغنائم الوفيرة التي تجمعت لديه من جراء هزيمة خصومه، ناداه الأعراب الفقراء: يا رسول الله! أقسم علينا فيئنا من الإبل والغنم، وازدحموا عليه حتى ألجؤوه إلى شجرة اختطفت عنه رداءه فقال: «ردوا عليَّ ردائي أيها الناس! فوالله لو كان لكم

(١) أحيل القارئ إلى الكتاب الذي نقلت عنه مقاطع من حديث جيد: (الصنم الذي هوى)، والذي ألفه ستة من كبار الكتاب، وترجمه فؤاد حمودة.

عندي بعدد شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم، ثم ما ألفيتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً. وتقدم إلى بعير قريب منه فاستل منه وبرة جعلها بين إصبعيه، ثم رفعها وقال: «أيها الناس! والله ما لي من فيئكم، ولا هذه الوبرة، إلا الخمس والخمس مردودة عليكم!!»... كان ﷺ ـ كما وصفه أعرابي ـ يعطي عطاء من لا يخشى الفقر...

ويوماً خرج ﷺ وصاحبه أبو ذر يتمشيان في أطراف المدينة، فاستقبلهما جبل أحد. قال أبو ذر: فخاطبني الرسول ﷺ: «يا أبا ذر!» قلت: لبيك يا رسول الله. قال: «ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهباً أموت وعندي منه دينار إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا»، عن يمينه وشماله وخلفه. ثم مشى فقال: «إن الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة، إلا من قال هكذا وهكذا وهكذا... وقليل ما هم!!».

ومات رسول الله...

عن عمرو بن الحارث، قال: «ما ترك رسول الله ﷺ عند موته درهماً ولا ديناراً ولا عبداً ولا أمة ولا شيئاً إلا بغلته البيضاء، وسلاحه، وأرضاً جعلها صدقة»!!!

ونترك زعماء اليساريات وقادتها وكوادرها المتقدمة وهي لا تزال تحمل شعارات الثورة من أجل العدل والمساواة، مرتفعة بها بخفة وتمرس نادرين على أكتاف الكادحين والجائعين، إلى سدة الحكم والسلطان، حيث تبدأ مأساة (الطبقة الجديدة) التي حدثنا عنها دجيلاس، بحيازة هؤلاء القادة والزعماء للأموال والمزارع والقصور والمراكب الفارهة، وانغمارهم في الملاهي والترف والملذات.

ونتذكر قبل أن نمضي إلى ختام مقالنا هذا ما ذكره عروة بن الزبير عن أبي حميد الساعدي، من أن رسول الله ﷺ استعمل رجلاً من الأزد على

صدقات بني سليم، فلما جاء بالمال حاسبه رسول الله، فقال الرجل: هذا لكم وهذا هدية أهدي إلي، فقام النبي ﷺ خطيباً بالناس، وقد احمرَّ وجهه (!!) فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «ما بال الرجل نستعمله على العمل مما ولانا الله، فيقول: هذا لكم، وهذا أهدي إلي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته؟! والذي نفس محمد بيده! لا نستعمل رجلاً على العمل مما ولانا الله فيغل منه شيئاً إلا جاء يوم القيامة يحمله على عنقه»... ثم رفع يديه إلى السماء.. وقال: «اللهم هل بلغت؟ اللهم فاشهد!!».



فهرس الموضوعات

تقديم ٥

القسم الأول: مقارنات ١١

القسم الثاني: مبادئ في كتاب الله ٣٥

الأكل ٦٣

الطعام ٦٦

الشراب ٦٧

القسم الثالث: تعاليم في مواقف الرسول ﷺ ٧٣

أولاً: المبادئ والقواعد والنظريات ٧٧

ثانياً: التجارب والممارسات الجماعية ٨٩

ثالثاً: الالتزامات والممارسات الأخلاقية ٩٧

فهرس الموضوعات ١١٦




@Ahmedyassin90



تصوير
أحمد ياسين
تويتر
@Ahmedyassin90